السنة الأولى ١٤٠١هـ رمضان - العدد ٦



دعوة الحق

السيرة النبوية في القرآن الكريم

دراسة وتصنيف

الدكتور عبد الصبور مرزوق

بسم الله الرحمن الرحيم

(كلمة تقديم)

لمعالي الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي

الشيخ محمد على الحركان

« السيرة النبوية فى القرآن الكريم »

الحمدُ لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

فإن الاهتمام الواضح في هذه الأيام من علماء الأمة الإسلامية ومفكريها بتدارس السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم ، لمن الأمور المبشرة بالصحوة الإسلامية المنشودة ، وعلامة من علامات الخير تدل على ما يمكن أن ننتظره في الغد . . ذلك أن عناية الأمة الإسلامية بسيرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه هي عنايةٌ بهذا الدين العظيم في ماضيه وفي مستقبله .

ومراجعةُ سيرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه في أي زمان ومكان إنما هي في الحقيقة مراجعةٌ لموقف الأمة من دينها ومن أوامر

ربها ونواهيه ، ومن طبيعة دورها الذي أراده لها الله .

فتنظر الأمة في السيرة وتتطلع إلى واقعها لترى البون الشاسع بين ما هي مقيمة عليه وبين ما يطالبُها به الدين . . ولترى كذلك مدى الفارق الكبير بين ما كان عليه سلفنا الصالح العظيم وبين ما انتهينا إليه .

* * *

ومهما يكن ما تخرجه المطابع من بحوث ودراسات لتذكير المسلمين وتبصيرهم بأمور دينهم ودنياهم . .

فلن يكون ثمّة كتابٌ بعد كتاب الله تبارك وتعالى أنفعَ لهذه الأمة وأقوى أثراً في شحذ وجدان شبابها ، وتبصير رجالها وقادتها من سيرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه . .

بما تقدم بين أيدينا من صور الإباءِ والفداء ، ومن نماذج الإيمان والتضحية والصبر على متاعب الدعوة في سمو عجيب يحار في وصفه وتعليله الواصفون .

* * *

وحسبُ السيرة النبوية الشريفة أنها تقدم بين يدي العالم كله كتاب ذلك اليتيم الفقير الذي جاء البشرية على فترة من الرسل ، فأخرجها من الظلمات إلى النور ، ونقلها من عبادة الطواغيت بكل صورها ونماذجها إلى عبادة الرحمن .

حسب السيرة النبوية الشريفة أنها تسجل لنا معشر المسلمين

ملامح خير أمة أخرجت للناس تتلاشى بينهم الأحساب والألقاب ، وتندثر العصبيات والنزعات وتتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ولا يكون لعربي فضل على عجمي إلا بما يعمر القلب من التقوى ومن سمات الإيمان .

حسب هذه السيرة أن الذين يريدون أن يصنعوا الرجال أو يعيدوا بناء الأمم لن يجدوا في غيرها بغيتهم ، ولن يكون ثمة دليلٌ أصدق ولا أهدى في التخطيط والتنفيذ أعظم من هذا الدليل .

لقد كان العرب – كما شهد غير واحد من غير المسلمين – قوماً يضربون في الصحراء عدة قرون لا يؤبه لهم ، فلما جاءهم النبي العربي – صلوات الله وسلامه عليه – أصبحوا قبلة الأنظار في العلوم والمعرفة ، وكثروا بعد قلة ، وعزوا بعد ذلة ، ولم يمض قرن من الزمان حتى استضاءت أطرافُ الأرض بما قدموا من علوم . . وما علموه للناس من قيم ومباديْ .

هكذا كان العرب قبل البعثة النبوية ، وهكذا أصبح المسلمون في جاهلية اليوم لا يكادون يملكون من شئون أنفسهم ما ينبغي لهم أن يملكوه ، ولا يكادون يملكون من أمر هذا العالم حتى مجرد أن يكون لهم رأي يؤبه له بين الآراء . . وبتنا وكأن هامش الحياة هو المكان المخصص لنا على خريطة الكون ، وكأننا نحن الذين عناهم الشاعر حين قال :

ويُقْضَى الأمْرحينَ تغِيبُ تَيْمٌ ولا يُستأذنونَ وهمْ شُهودُ

وإذا كان فجر الإسلام قد محا ظلمة الجاهلية الأولى . . فلن يمحو الظلمة الغاشية في جاهلية اليوم إلا الاستمساكُ الصادق بهذا الدين والتأثر الكاملُ بالنبي صلوات الله وسلامه عليه ، وإعادةُ تصحيح المسار في ضوء ما حفلت به سيرته صلوات الله عليه من مبادئ ومثل . .

إن الإهتمام بأمر السيرة النبوية وخاصة في هذه الأيام التي كثر فيها الافتراء والتجرؤ عليها . . ليس اهتماماً بكتاب من الكتب ، ولا وقوفاً في المناسبات أمام التاريخ الشخصي لعظيم من العظماء .

وإنما هو مراجعة شاملة لتاريخ هذه الأمة كيف نشأت ؟

وعلى أي المبادئ صيغت ؟

ومن أين تجمعت لها أسباب البقاء والانتصار ؟ . .

الاهتمام بالسيرة مراجعة واجبة ومطلوبة دائماً لمعالم الطريق الذي أصبحنا به أمة . . وبغيره لن يكون لنا وجود ولا تاريخ .

ولقد سبق للأمانة العامة للرابطة أن اشتركت بهذا البحث في «المؤتمرالعالمي الثالث للسيرة النبوية» الذي عقد بمدينة الدوحة في إمارة قطر الشقيق في الفترة ما بين ١ — ٣ محرم ١٤٠٠هـ . واشترك في مناقشته لفيف من العلماء وذوي الاختصاص .

وعلى الرغم مما حظي به من ثناء فإن مؤلفه الأستاذ الدكتور عبد الصبور مرزوق كان وما يزال يرى أن الموضوع أكبر من

وقته ومن عزمه وأنه محتاج إلى جهود متفرغة من المتخصصين ، ومن ثم فهو يرجو من قرائه وأصدقائه أن يصوّبوا بعلمهم ما قد يصادفون من خطأ وأن يسددوا بفضلهم ما قد يصادفون من قصور .

بيد أن البحث مع هذا وكما قرره أكثر الذين ناقشوه يمثل منحىً جديداً في دراسة السيرة النبوية جديراً بالاهتمام ، وحسبه أن تجد الواقعة في التاريخ سنداً من آيات القرآن لتكون برهاناً على صدق روايتها إلى آخر الزمان .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الأمين العام

محمد علي الحركان

(مقدمة المؤلف)

كان تناولنا لموضوع هذا البحث « السيرة النبوية في القرآن الكريم » كما هو واضح في الدراسة المرفقة ـ كاشفاً لأمور بالغة الدلالة فيما يتصل بدراسة السيرة النبوية من ناحية وما يتصل بدراسة سمات وخصائص هذه الدعوة من ناحية ثانية .

فأما ما يتصل بدراسة السيرة النبوية فقد اتضح لنا :

● **أولا** : ان كتب السيرة النبوية على وفائها وشمولها ووقوفها بالتفصيل أمام الأحداث والوقائع في حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه . .

فإنها مع هذا كله لم تكد في معظم حالاتها تجاوز ما جاء عن الوقائع والأحداث نفسها في القرآن الكريم .

ونشير على سبيل المثال إلي ماتضمنته كتب السيرة من وقائع غزوة الأحزاب وما أحاط بها من ظروف بالغة الصعوبة على المسلمين حتى نجم النفاق وأرجف المرجفون . .

وقائع هذه الغزوة قد سجلها القرآن الكريم على نحو بالغ الدقة والإبداع في آيات سورة الأحزاب . .

«يا أيُّها الذين آمنوا اذْكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان اللهُ بما تعملونَ بصيراً . إذ جاءوكُم من فوقِكُم ومن أسفلَ منكم وإذْ زَاغَتْ الأبصارُ وبلغَت القلوبُ الحناجِرَ وتظنونَ بالله الظنونا . هنالك ابْتُلِيَ المؤمنونَ وزُلْزلوا زلزالاً شديداً . وإذ يقولُ المنافقونَ والذين في قلوبهم مَرَضٌ مَا وعدنا اللهُ ورسولُه إلا غروراً . وإذ قالتْ طائفةٌ منهم يا أهلَ يثربَ لا مُقام لكم فارجعوا ويستأذن فريقٌ منهم النبيَّ يقولون : إن بيوتَنَا عورةٌ وما هي بعورة إنْ يريدونَ إلا فراراً . ولو دُخلت عليهم من أقطارِها ، ثم سُئلوا الفتنةَ لآتوها وما تلبّثوا بها إلا يسيراً . ولقد كانوا عاهدُوا الله من قبلُ لا يولُّونَ الأدبارَ وكان عهدُ الله مسئولاً » . (١)

إلى غيرها من الآيات التي وصفت ما عناه المسلمون ، وما أنزلته بهم محنة الأحزاب من بأس لم يكونوا في مستوى التصدي له . لولا أن ربط الله على القلوب وأيدهم بنصر من عنده . .

* * *

● ثانيا : ان كتب السيرة في مجملها ــ وقفت عند حد تسجيل الوقائع والأحداث ووُفِّقت في ذلك إلى حد بعيد بحيث بات لدينا سجل حافل بكل ما نحتاج إليه لتتبع مراحل الدعوة وتفاصيل أحداثها ومواقف رجال الصدر الأول فيها ومواقف أعدائها والمترددين

---

١ ــ الاحزاب : الآيات من ٩ ــ ١٥

فيها من أهل النفاق . . فكل هذا وفره لنا أصحاب السِّيَرِ رحمهم الله وجزاهم خيرا .

لكن تقييم هذه الأحداث وتقديرها والحكم عليها . . هو ما انفرد به القرآن الكريم . في المواطن التي تعرض فيها لذكر هذه الأحداث والوقائع .

وعلى سبيل المثال أيضاً فإن ما ورد في القرآن الكريم عن « حديث الإفْك » في سورة النور قد امتاز إلى جانب الوصف والتسجيل بالتقييم والحكم .

وذلك حيث قرر القرآن منذ البداية ، أن ما قيل وما يقال حول هذا الموضوع إنما هو إفكٌ وافتراء ، خرجت به جماعة المنافقين والمرجفين في المدينة يريدون بالرسول وبالدعوة كلها شراً . . بدليل أنهم تلقفوا الفِرْيَةَ من غير أن يتدبروها ويستوثقوا من عدالة قائليها ، وأيضاً من غير أن يطلبوا البينة عليها وهو أبسط ما يطلبه المنصف لنفسه وللناس . .

وفوق هذا فقد فات هؤلاء المرجفين بأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضعوا أنفسهم وبيوتهم في مثل هذا الموقف ويروا ماذا كان ينبغي لهم أن يفعلوه لو كانوا منصفين . . وذلك حيث يقول سبحانه :

« إنَّ الذينَ جاءوا بالإفْكِ عصبةٌ منكم لا تحسبوهُ شراً لكم ، بل هو خيرٌ لكم لكل امرىءٍ منهم ما اكتسبَ من الإثْم

والذي تولّى كِبْره منهم له عذابٌ عظيم . لولا إذْ سمعتموه ظنَّ المؤمنونَ والمؤمناتُ بأنفسهم خيراً وقالوا : هذا إفْكٌ مبين . لولا جاءوا عليه بأربعةِ شُهداءَ فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عندَ اللهِ هم الكاذبُون » . (١)

* * *

● ثالثاً : إن الحدَث الذي ترويه كتب السيرة يبقى مجرد حدث مرتبط بزمانه ومكانه وأشخاصه . .

لكنه عندما يروى في القرآن الكريم يتحول إلى درس كبير يتجاوز ظروف الحدث مكاناً وزماناً وأشخاصاً إلى حيث يصبح قضية عامة ومبدأ يعامل به كل المسلمين في كل زمان وكل مكان متى تشابهت ظروفهم وظروف هذا الحدث الخاص . .

ونستفيد بالمثال الذي بين أيدينا من حديث الإفك . .الذي انتقل القرآن الكريم من الوقوف أمامه كحدث بعينه في ظروف خاصة إلى اعتباره قضية من قضايا صيانة عرض المسلم ووجوب توفير الحماية له ، واعتبار من يشيع الفاحشة في مجتمع المسلمين أو ينال من أعراضِ المُحْصَنَات الغافلات . . بغير دليل يقيني هو أربعة شهود عدول ــ اعتبار ذلك من الأمور الخطيرة عند الله و التي يجب اعتبار من يفعلها من المفسدين لمجتمع الإسلام الذين

١ ــ النور : الايات ١١ ــ ١٣

تجب حمايته منهم في الدنيا بالحد ، ومعاقبتهم في الآخرة بأشد العذاب على نحو ما قال سبحانه :

« إذْ تَلقّونه بألسنتكُم وتقولُون بأفواهِكم ما ليس لكم به علمٌ وتحسبونَه هيّناً وهو عند الله عظِيم . ولولا إذْ سمعتُموه قلتم ما يكون لنَا أن نتكلّم بهذا ، سبحانَك هذا بهتانٌ عظيمٌ . يعظكم الله أن تعودُوا لمثله أبداً إن كنتُم مؤمنين . ويبينُ اللهُ لكم الآياتِ واللهُ عليمٌ حكيم . إنّ الذين يحبّون أن تشيع الفاحشةُ في الذين آمنوا لهم عذابٌ أليمٌ في الدنيا والآخرةِ واللهُ يعلم وأنتُم لا تعلَمون » . (١)

إلى قوله :

« ولا يَأتَلِ أُولوا الفضْلِ منكم والسّعةِ أن يُؤْتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيلِ الله وليعفوا وليصفحوا ألا تُحبّون أنْ يغفِر الله لكم واللهُ غفورٌ رحيمٌ . إن الذين يرمون المُحْصنَات الغَافلاتِ المؤمنَاتِ لُعنوا في الدّنيا والآخرةِ ولهمْ عذابٌ عظيمٌ . يوم تشهدُ عليهم ألْسِنتَهُم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعمَلُون . يومئذٍ يوفّيهم اللهُ دِينَهم الحقّ ويعلمون أن الله هو الحقُّ المبين » . (٢)

فهذا التفصيل الدقيق المقرون بالتقييم والتوجيه وتحديد التبعات

---

١ ـ النور : الآيات من ١٥ ـ ١٩

٢ ـ النور : الآيات ٢٢ ـ ٢٥

والعلاقات بين الناس في مجتمع الإسلام . . يجاوز النص القرآني بالحدث ما وقفت عنده كتب السيرة ليصبح الحدث في ذاته مجرد مثل أو نموذج يحدد القرآن سماته ويضع له حدوده وأحكامه . بينما تفقد كتب السيرة هذه الميزة .

* * *

● **رابعاً** : ثمة أحداث عرضت لها كتب السيرة بشيء من التفصيل بينما آثر القرآن الكريم فيها التعميم والإجمال . وذلك لحكمة إلهية تقتضي الإيجاز وتكتفي بتقرير الحدث .

من ذلك ما جاء في القرآن الكريم عن حادث « الإسراء » حيث لم يزد ما ورد بشأنه عن آية واحدة في مفتتح سورة الإسراء :

« سبحَان الذي أسْرى بعبدِهِ ليلاً من المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقْصى الّذي باركْنَا حولَه لِنُريَه من آياتنا إنه هو السميعُ البصير » . (١)

وآية أخرى في سورة الإسراء هي قوله تعالى :

« ومَا جعلْنا الرُّؤْيا التي أريْناك إلاّ فتنةً للناس » . (٢)

ومن ذلك أيضاً ما جاء بشأن ما حدث بين الرسول وزوجاته والذي تحدث عنه القرآن في سورة التحريم :

« يا أيُّها النبيُّ لم تحرّمُ ما أحلَّ اللهُ لَكَ تبتَغي مَرضاة

---

١ ـ الاسراء : الآية الاولى

٢ ـ الاسراء : الآية ٦٠

أزواجِك واللهُ غفورٌ رحيمٌ » .(١) الآيات . .

فليس من شأن القرآن أن يعنى بما لا تجب العناية به من التفاصيل . . وحسب القرآن – كما أشرنا – أن يحقق الواقعة ويؤكد حدوثها ويترك للناس التفاصيل يختلفون من حولها ، ما يشاؤون .

* * *

● خامساً : على عكس ما سبق هناك أحداثٌ أوجزتها كتب السيرة النبوية بينما فصلها القرآن . **فاستوعب الحدث ونتيجته وقرر الحكم الذي يترتب عليه .**

على سبيل المثال فإن ما جاء في كتب السيرة بشأن تبني رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة ، فهو قليل بالقياس إلى ما ورد في القرآن . . الذي عنى بتحديد العلاقة بين الآباء والأبناء بالتبني .

وكان أهل الجاهلية لا يجيزون زواج الأب من زوجة ابنه بالتبني إذا فارقها الإبن . . فقرر الإسلام بشأنها حكمه الجديد الصحيح .

وأيضاً فقد كان زواج النبي صلى الله عليه وسلم من (زينب بنت جحش) مثار جدل وحديث طويل بدأه المشركون والمنافقون

---

١ – التحريم : الآية الاولى

على أيامهم ، وظل المرجفون حتى عصرنا الحاضر يلوكـونه ويخوضون فيه .

ومع أن السيرة لم تعطه حقه من التفصيل فقد نَفَذَ فيه القرآن الكريم إلى أعماقه ، بل لقد نشر على الناس أمره حتى مخاوف الرسول صلوات الله وسلامه عليه مما يمكن أن يقول الناس فيه . . وذلك في قوله تعالى في سورة الأحزاب :

« . . . ما جعل اللهُ لرجلٍ من قلْبينِ في جوْفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتِكم وما جعل أدْعِياءَكُم أبناءَكُم ذلكم قولُكم بأفواهِكُم واللهُ يقولُ الحقَّ وهـو يهدي السَّبيل . ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جُناحٌ فيما أخطأتُم به ولكن ما تعمّدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً »(١)

ثم قوله تعالى :

« وإذْ تقولُ للذي أنعم اللهُ عليه وأنعمت عليه أمْسِكْ عليك زوجَك واتّقِ الله وتُخْفي في نفْسِك ما اللهُ مُبْدِيه وتَخْشَى الناس واللهُ أحقُّ أن تخشاه ، فلما قضى زيْدٌ منها وطراً زوجناكَهَا لكيلا يكون على المؤمنين حرجٌ في أزواجِ أدعيائِهمْ إذا قضَوا منهنَّ وطراً ، وكان أمر الله مفعولاً .

---

١ ــ الاحزاب : الآيتان : ٤ ــ ٥

ما كانَ على النبيِّ من حَرَجٍ فيما فرضَ اللهُ له سنةَ اللهِ في الذين خلوْا من قبلُ وكان أمر اللهِ قدراً مقدوراً . الذين يبلّغون رسالاتِ الله ويخشونَه ولا يخشون أحداً إلاّ الله وكفى بالله حسيباً . ما كان محمدٌ أبَا أحدٍ من رجالكم ولكنْ رسول الله وخاتَم النبيّين وكان اللهُ بكلِّ شيءٍ عليماً » . (١)

* * *

● **سادساً:** قد انفرد القرآن الكريم بالحديث عن كثير من صفات النبوة وخصائصها بالنسبة لرسولنا صلوات الله وسلامه عليه .

من ذلك مثلا : حديث القرآن عن عموم رسالته صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة ، وأنه رحمة مهداةٌ إلى الناس أجمعين . وذلك في مثل قوله تعالى :

« قل لا أسألكم عليه أجراً إنْ هو إلا ذكرى للعالمين » . (٢)

وقوله :

« وما أرسلناك إلا رحمةً للعالَمين » . (٣)

وقوله :

« تبَارك الذي نزّل الفرقان على عبدِه ليكون للعالمين نذيراً » . (٤)

وغيرها من الآيات .

* * *

---

١ ـ الاحزاب : الايات ٣٧ ـ ٤٠ ٢ ـ الانعام : الاية ٩٠
٣ ـ الانبياء : الاية ١٠٧ ٤ ـ الفرقان : الاية الاولى

ومن ذلك مثلا: تحديد مهمة الرسالة في البيان للناس وفي إبلاغهم ما أرسل به إليهم وذلك في مثل قوله تعالى :

« فإن حاجوك فقل أسلمتُ وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلَموا فقد اهتدوا ، وإن تولَّوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » . (١)

وقوله تعالى :

« يا أيها الرسولُ بلّغْ ما أُنزل إليك من ربك وإنْ لَمْ تفعلْ فما بلّغت رسالَتهُ واللهُ يعصِمُك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين » . (٢)

وقوله تعالى :

« ما على الرّسولِ إلا البلاغُ واللهُ يعلم ما تُبدون وما تكتُمون » . (٣)

وقوله تعالى :

« فإنْ أعرضُوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إنْ عليك إلا البلاغُ » . (٤)

إلى غير ذلك من الآيات .

* * *

١ ـ آل عمران : الآية ٢٠
٢ ـ المائدة : الآية ٦٧
٣ ـ المائدة : الآية ٩٩
٤ ـ الشورى : الآية ٤٨

ومن ذلك مثلا : تأكيد بشريته صلى الله عليه وسلم وأنه ليس مَلَكاً من السماء وإنما بشرٌ من البشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويجوز عليه صلى الله عليه وسلم ما يجوز على الناس من النصر والهزيمة ومن المرض والموت . . ومن التزاوج والتناسل وما إلى ذلك من صفات البشر .

وذلك في مثل قوله تعالى :

« أكان للنّاسِ عجباً أن أوحينَا إلى رجلٍ منهُم أنْ أنذر الناس وبشّر الذين آمنوا أنّ لهم قدم صدْقٍ عند ربهم قَال الكافرون إن هذا لساحرٌ مبين » . (١)

وقوله تعالى :

« ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية».(٢)

وقوله تعالى :

« قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يُوحَى إليّ أنما إلٰهكم إلهٌ واحدٌ».(٣)

إلى غير ذلك من الآيات .

* * *

ومن ذلك مثلا : تقرير أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ختام النبوات والرسالات ، وأن القرآن الذي أُنزل عليه مصدق لما بين يديه من الكتاب .

---

١ ــ يونس : الآية ٢
٢ ــ الرعد : الآية ٣٨
٣ ــ الكهف : الآية ١٠

وذلك في مثل قوله تعالى :

« ما كان محمد أبا أحدٍ من رجالكم ولكنْ رسول اللهِ وخاتَم النبيّين » . (١)

وقوله تعالى :

« وهذا كتاب أنزلناه مباركٌ مصدقُ الذي بين يديه » . (٢)

وقوله تعالى :

« وآمنوا بما أنزلتُ مصدقاً لما معكُم » . (٣)

وقوله تعالى :

«ثم جاءكم رسولٌ مصدقٌ لما معكُم لتؤمننَّ به ولتنصرنّه»(٤).

وقوله تعالى :

« وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ مصدقاً لما بين يديهِ من الكتابِ ومهيمناً عليه » . (٥)

وقوله تعالى :

« والذي أوحينا إليكَ من الكتابِ هو الحقُّ مصدقاً لما بينَ يديه » . (٦)

* * *

---

١ ــ الاحزاب : الآية ٤٠
٢ ــ الانعام : الآية ٩٢
٣ ــ البقرة : الآية ٤١
٤ ــ آل عمران : الآية ٨١
٥ ــ المائدة : الآية ٤٨
٦ ــ فاطر : الآية ٣١

● سابعاً : لقد امتاز العرض القرآني لأي حدث من أحداث السيرة النبوية امتاز على كل ما كتب وما سيكتب منها بالأسلوب وبالبيان المعجز الذي تكتسب الكلمات والجمل فيه حيوية دفاقة تجسم الحدث وتحيطه بالإيحاءات والظلال وتنقل القارئ والمستمع إلى جوه وكأنما يعيشه أو يشارك فيه ، وذلك ما لم يتوفر وما لن يتوفر لأيٍّ من كتب السيرة في القديم والحديث .

ولنقف معاً على سبيل المثال أمام قول الحق تبارك وتعالى في سورة الأحزاب واصفاً مفاجأة المشركين وحلفائهم للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في عقر دارهم بالمدينة وما كان لذلك من أثر على حالة المؤمنين فيقول :

« إذْ جاءوكُم من فوْقكم ومن أسفلَ منكُم ، وإذْ زاغَتِ الأبصارُ وبلَغَتِ القلوبُ الحناجرَ ، وتظنونَ بالله الظنونَا . هنالك ابتُلِيَ المؤمنونَ وزُلْزِلُوا زِلزالاً شديداً » . (١)

فلست أعتقد أن بوسع الكلمات مهما أوتيت أن تبلغ في تصوير هذه الإحاطة المخيفة المفزعة لجيوش المشركين بقوات المؤمنين المحصورة في المدينة أكثر مما بلغته هذه الآيات . . أو حتى تقرب منه .

جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم .

فلا مفر . . انها القارعة إذن .

---

١ ـ الاحزاب : الآيتان ١٠ ـ ١١

وها هو المصير الرهيب الذي فر المهاجرون من مواجهته في مكة . . يلاحقهم في عقر دارهم بالمدينة حيث لا مهرب ولا مناص . .

ولست أعتقد كذلك أن بوسع الكلمات مهما أُوتيت أن تبلغ في تصوير فَزَع المسلمين واضطرابهم من مثل هذه الآية :

« وإذْ زَاغت الأبصارُ وبلَغَت القلوبُ الحناجر » .

وما الذي يبقى من النفس إذا انخلعت القلوب من أماكنها كأنما توشك هي الأخرى أن تفر هربا قبل أن يدركها المهاجمون؟!!

إن لهذا الموقف العصيب – كما صورته الآية – أثره الذي لا بد منه على طمأنينة النفس وعلى ثقتها في كل ما كانت تطمئن إليه وتثق به من قبل .

ولذا كان ختامها :

« وتظُنّونَ بالله الظُّنونَا » من أعظم التعبيرات صدقاً في الوصف والتصوير والدلالة . .

وهذا – كما قلت – ما لا يمكن أن تبلغه الكلمات في غير بيان القرآن .

* * *

● **ثامناً** : إذا كانت كتب السيرة تقف في تسجيلاتها عند ظواهر الأحداث والتصرفات . . لأنها لا تملك النفاذ إلى ما وراء ذلك ،

فإن ما جاء عن السيرة في القرآن الكريم يمتاز بالحديث عما

وراء الظاهر ، ، حيث أنه بميزة الوحي الإلهي إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستطيع استبطان الأحداث والأشخاص وكشف ما في أعماقهم وتقديمه للناس .

من ذلك مثلاً حديث القرآن عن المنافقين .

وقد جاء حديثهم هذا مثبوتاً في كتب السيرة في شكل تصرفات ومواقف كانوا يقفونها من الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فإذا خوطبوا بشأنها قدموا العلل والمعاذير . . كما حدث عند استئذان بعضهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب في الرجوع إلى بيوتهم بحجة أنها عورة وأنها مكشوفة للعدو . . وقد أذن لهم .

فلما جاء القرآن فتحدث عنهم كشف الحقيقة في هذا الاعتذار الكاذب فقال :

« وإذْ قالتْ طائفةٌ منهم يا أهلَ يثربَ لا مُقامَ لكم فارْجعُوا ، ويستأذنُ فريقٌ منهم النبيَّ يقولون : إنَّ بيوتنَا عورةٌ وما هِيَ بعوْرة إنْ يريدُونَ إلا فِراراً » . (١)

ثم يزيد القرآن في كشف الخبء من أعماقهم ويبين أنهم لم يخرجوا لحماية أهليهم حتى لا يأخذهم المشركون والكفار كما زعموا .

بل انهم هم أنفسُهم على استعداد تام للاستسلام للكفر

---

١ ـ الاحزاب : الآية ١٣

والإرتداد عن الحق عند أبسط اختبار وذلك في قوله تعالى :

« ولوْ دُخِلت عليهم من أقطارِها ثم سُئِلوا الفتنةَ لآتوها وما تلبّثوا بها إلا يسيراً . ولقد كانُوا عاهدُوا اللهَ من قبلُ لا يوَلُّونَ الأدبارَ وكان عهدُ اللهِ مسئولاً » . (١)

* * *

● **تاسعاً** : إذا كانت كتب السيرة النبوية قد عرضت في تفاصيلها للكثير من حالات الناس ومواقفهم بين مرتبتي الإيمان والكفر وما بينهما من تردد أو نفاق . . فهي قد عرضت ذلك مثبوتاً في مواقعه وحسب زمان الحدث ومكانه ، من غير أن تقرن الحالات وتضمها إلى بعضها بما يشكل منها آخر الأمر نموذجاً فيه السمات والخصائص .

إذا كانت كتب السيرة قد فعلت ذلك فقد كان للقرآن أُسلوب آخر ، جمع فيه سمات النموذج المتشابه بعضها إلى بعض ، وقدمها للناس في أدق صورة .

وعلى سبيل المثال إذا كانت كتب السيرة قد تحدثت عن أخلاق أهل الإيمان من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ووصفت الكثير من شمائلهم مكتفية بذلك :

ففي القرآن الكريم ترى ملامح هذه الشخصيات مرسومة في بعض سور القرآن ليقتدي بها من شاء على نحو ما نجده في أول

---

١ ـ الاحزاب : الآية ١٤ ـ ١٥

سورة « المؤمنون » حيث تجتمع في السورة عشر آيات متصلة تبين خصائص هؤلاء وما ينبغي أن يكون عليه من يحب أن يكون منهم وذلك في قوله تعالى :

« قد أفلحَ المؤمنونَ الذينَ هُم في صلاتِهم خاشِعُون . والذين هم عن اللّغْو معرِضونَ . والّذين هم للزكاة فاعلون».(١)

إلى آخره .

* * *

ومثله كذلك حديث القرآن عن نموذج « عباد الرحمن » في سورة الفرقان :

« وَعبادُ الرحمنِ الّذين يمشُون على الأرضِ هوناً وإذا خاطَبهمْ الجاَهِلونَ قالوا سلاما . والّذِين يبيتُونَ لربّهم سُجّداً وقِياماً » . (٢)

إلى آخره .

* * *

وفي الجانب الآخر نجد الوصف الدقيق لسمات المنافقين وخصائصهم في سورة بأكملها تحمل اسمهم في القرآن وتتحدث بالتفصيل عنهم .

ومع أن تصرفات المنافقين والمؤمنين جميعاً قد سجلت في

---

١ ـ المؤمنون : الايات ١ ـ ١٠

٢ ـ الفرقان : الايات ٦٣ ـ ٧٥

كتب السيرة . . لكنها سجلت كحالات فردية . . لا كنماذج يمكن التعرف عليها بوضوح كما صور القرآن .

* * *

● **عاشراً** : إذا كانت كتب السيرة – على اختلاف مؤلفيها واختلاف وجهاتها في التناول . . قابلةً لأن تضم بين طياتها خبراً غير صحيح ، أو رواية مشكوكاً فيها أو استنتاجاً غير صدق . .

إذا كانت كتب السيرة قابلة لذلك . . فإن ما يجيء من حديث السيرة النبوية في القرآن الكريم هو القول الفصل الذي لا شك فيه ولا اضطراب . . وهو وحده المرجع الأعظم الذي تصحح به المراجع ، وتعرض على مقياسه السير والتواريخ .

هذا كله هو بعض ما نخرج به من ملاحظات على السيرة النبوية إذا درست في ضوء القرآن الكريم .

أما ما تعطينا إياه مثل هذه الدراسة مما نحن فعلا في أشد الحاجة إليه لترشيد خطانا في مجال الدعوة ، فذلك ما نوجزه فيما يلي :

أولا – الدعوة إيمان وعمل وليست كلمات وشعارات :

وهذا المبدأ الأساسي الهام يلتقي القرآن الكريم والسنة النبوية في تأكيده والإعلان المستمر عن أهميته في كل مناسبة . وذلك في مثل قوله تعالى :

« قالَتِ الأعرابُ آمنّا ، قلْ لم تؤْمِنُوا ولكنْ قولُوا أسلمْنَا ولَمّا يدْخُلِ الإيمانُ في قلُوبكُم »(١) .

وقوله تعالى :

« أجعلتُم سقَايةَ الحَاجِّ وعِمارةَ المسجدِ الحَرام كَمَنْ آمنَ بالله واليومِ الآخِرِ وجَاهد في سبيلِ الله لاَ يستوُونَ عِندَ الله » . . (٢)

وقوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل »(٣) .

وقوله تعالى :

« لا يستوي القاعدونَ من المؤمنينَ غيرُ أولي الضرر والمجاهدُونَ في سَبيل الله بأموالِهم وأنفسِهمْ فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفُسِهم على القاعدين درجةً وكلاًّ وعَد اللهُ الحسنَى وفضّل الله المجَاهدينَ على القاعِدين أجراً عظيماً » . (٤)

والنماذج من السيرة تشرح ما تجمله الآيات .

فهؤلاء أعراب من بني أسد بن خزيمة يظهرون الشهادتين ويقدمون بهما على رسول الله مطالبين بالنفقات والصدقات ويمنون

---

١ ـ الحجرات : الآية ١٤
٢ ـ التوبة : الآية ١٩
٣ ـ التوبة : لآية ٣٨
٤ ـ النساء : الآية ٩٥

على الرسول أنهم دخلوا في دينه . . وما هكذا الإسلام فيأتي القرآن ليصحح لهم الفهم ويقوّم المعيار فيقول :

« يمنّون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليّ إسلامكم بل الله يمُنُّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » . (٥)

* * *

ونموذج آخر من أولئك الذين افتخروا بأنهم سدنةُ البيت وعُمّاره وبأيديهم مفاتيحه يجب أن يعلموا أن هذا الأمر على فضله ـ أدنى بكثير من الجهاد في سبيل الله . . لأن الاهتمام بالبيت ينبع من الطمأنينة ويتم في الرخاء ، بينما الجهاد في سبيل الله عناء وفداء وبذل لأقصى ما يجود به إنسان . . ثم هو قبل هذا دفاع عن العقيدة وابتلاء من أجل انتشارها في الأرض . وذلك في قوله تعالى :

« أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله » . الآية

وهكذا بقية النماذج التي يتعاون القرآن والسيرة على تأكيد مثلها في الناس .

ثانياً ـ الدعوة قدوة وأسوة وليست تبليغاً بدون التزام :

وكذلك تلتقي السيرة النبوية بالقرآن الكريم في تأكيد هذا المبدأ . وذلك في مثل قوله تعالى :

---

١ ـ الحجرات : الآية ١٧

« لقدْ جاءكُم رسولٌ من أنفُسِكم عزيزٌ عليه ما عَنِتُّم حريصٌ عليكم بالمؤمِنين رءوفٌ رحِيمٌ »(١) .

وقوله تعالى :

« محمدٌ رَسولُ الله والّذِينَ معَهُ أشِداءُ علَى الكفّار رُحماءُ بينَهم تَراهُم ركّعاً سجّداً يبْتغُونَ فضلاً من الله ورضوانا ، سيماهم في وجُوهِهم من أثر السجود »(٢) . الآية

وما حفلت به السيرة من شمائل الرسول صلوات الله عليه في غير حاجة إلى إعادة .

فقد كان أعظم أصحابه بل أعظم الناس طرّا خوفاً من الله ورعاية لحقوقه وعبادة له .

وكان أكثر أصحابه بل أكثر الناس طرا تشديداً على نفسه وتكليفاً لها بما لا يطلبه من الآخرين .

وكان قبل هذا كله أرفق الناس بالناس وأشدّهم عطفاً على المستضعفين وأخفضهم جناحاً لمن اتبعه من المؤمنين .

ولهذا تمكنت محبته صلى الله عليه وسلم من القلوب ، وكان الصحابة من حوله على استعداد حقيقي لافتدائه بآبائهم وأمهاتهم وأنفسهم . ولعل ما فعلته أم عمارة الأنصارية يوم أحد وهي امرأة ضعيفة الجانب . . ما فعلته يوم أُحد دفاعاً عن رسول الله

---

١ ـ التوبة : الايتان ١٢٨ ـ ١٢٩

٢ ـ الفتح : الآية ٢٩

صلى الله عليه وسلم وقتالا دونه لجدير بأن يستلفت القادة في كل مكان إلى ما يمكن أن يصنعه حب القائد في وجدان أتباعه .

ولعل إيثار زيد بن حارثة رضي الله عنه لمحمد صلى الله عليه وسلم على أبيه وقومه لجدير بأن يكتب في أعجب وأعظم صفحات التاريخ دليلا على ما امتازت به الشخصية المحمدية من صفات تستوجب من الحب ما يغلب عواطف الأبناء نحو الآباء .

كل هذا لأن المصطفى صلوات الله عليه كان مثلا بشرياً لكل سماحة الإسلام يمشي على قدمين . . فأحبه الناس وأحبوا فيه دينه ودعوته .

وهكذا ينبغي أن تكون الدعوة .

* * *

وقبل أن أخلّي بين القارئ الكريم وبين هذه الدراسة أسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل العمل خالصاً لوجهه وأن يرحم والديّ كما ربّياني صغيراً .

عبد الصبور

تمهيــــد

صورة المجتمع الجاهلي في القرآن الكريم

تدل الإشارات الواردة في القرآن الكريم على أن هــذا المجتمع الجاهلي كان مؤسساً على مجموعة من الأعراف والتقاليد وإن تكن ذات قيمة حضارية محدودة لكنها كانت غير صالحة للاستمرار ، حتى ولو لم يظهر الإسلام في هذه المنطقة ويحدث من التغيير ما أحدث . ذلك لأنها في جملتها باستثناء الكرم والشجاعة وإباء الضيم كانت تدخل في تقويم الإنسان أموراً خارجة عن جوهر الذات ، وما ليس من الذات قابلٌ أبداً للفناء والاندثار .

من ذلك مثلا هذه المغالاة المفرطة في الاعتداد بالأحساب والأنساب ، والتكاثر الغريب بالأموال والسطوة القبلية وكلها أعراض خارجة عن حدود فضائل النفس يهتمون بها . دون نظر إلى القيمة الحقيقية التي يمتاز بها إنسانٌ عن إنسان ، والقيمة الحقيقية للإنسان قيمة داخلية تقوم على ما يتوفر له من فضائل النفس ومقومات بقائها ونموها واستمرار عطائها للحياة .

ولذا أنكر القرآن عليهم ذلك في قوله سبحانه :

« ألْهاكُم التكاثُر . حتى زُرتُم المقَابرْ » . (١)

وقد انعكس ، هذا الانحراف الفكري لديهم على تصورهم الغريب لطبيعة النبوة ظانين أنها كأمر شريف لا يصح أن يتولاه إلا العظماء حسب أعرافهم . . أي الأغنياء ذوو العصبيات والأحساب فقالوا – كما تحدث القرآن :

« وقَالُوا . . لوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجل من القريتَيْنِ عظِيم . أَهُمْ يقْسمونَ رحمةَ ربِّك » . (٢)

وقد صحح الإسلام هذه النظرة الخاطئة وانتقل بمعيار التقويم من خارج النفس إلى داخلها وجوهرها وذلك حين اعتبر التقوى أساس التمييز والتفاضل بين الناس وذلك في قوله تبارك وتعالى :

« يا أيها النّاسُ إنّا خلقناكُم من ذَكَرٍ وأُنْثَى وجعلْناكُم شعوباً وقَبائِل لتَعَارفُوا ، إنّ أكرمكُم عندَ اللهِ أتقَاكُم»(٣)

كما صحح لهم نظرتهم الخاطئة في قضية النبوة فقرر لهم أن الغنى وعصبيات القبلية إذا صلحا معياراً للتفاضل في بعض أمور الدنيا فإنهما لا يصلحان للتفاضل في أمور النبوات والرسالات .. لأن للأخيرة معياراً ربانياً آخر ذكره القرآن الكريم في قوله تبارك وتعالى رداً عليهم :

---

١ – التكاثر : الآيتان ١ – ٢ ٢ – الزخرف : الآيتان ٣٠ – ٣١
٣ – الحجرات : الآية ١٣

« أهُمْ يقسِمونَ رحمةَ ربّك نحنُ قسَمْنا بينَهم معيشتَهُم في الحيَاةِ الدُّنيَا ورفَعنا بعضَهم فَوقَ بعضٍ درجاتٍ ليتّخِذَ بعضُهم بعضاً سُخْرِيّاً ورحمةُ ربّك خيرٌ ممّا يجْمَعونَ »(١).

ومن الجدير بالملاحظة أن اعتبار التميز المادي مقياساً للتفاضل في الجاهلية العربية جاء مماثلا لنظيره في الجاهلية الفرعونية عندما أُرسِلٍ موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه لقيه فرعون بمنطق جاهليٍّ ينظر إلى الإنسان بمعيار خارج عن جوهر الإنسان ، وتصوّر له معايير الجاهلية أنه خيرٌ من موسى عليه السلام لأنّ له ملك مصر وتجري من تحته الأنهار بينما لا يملك موسى – عليه السلام – شيئاً من ذلك ، وليس بيديه حتّى ولا أسورة من ذهب ، ولذا قال فرعون قولته المشهورة التّي حكاها القرآن :

« وَنَادى فِرعونُ في قومِهِ قالَ : يا قومِ أليسَ لي ملكُ مِصرَ وهذِهِ الأنهارُ تجري مِنْ تَحتِي أفلاَ تُبصرونَ . أَم أنا خيرٌ من هذَا الّذِي هُو مَهينٌ ولا يَكَادُ يُبِينُ . فَلولاَ أُلْقِيَ عَليه أَسْوِرةٌ من ذَهبٍ أَو جاءَ معه الملائكةُ مقْتَرنين » . (٢)

* * *

ومن سمات الجاهلية التّي تحدث عنها القرآن الكريم منكراً على أصحابها استمرارهم عليها : سمتان بارزتان :

(أولاهما) الخضوع الكامل لحمية الجاهلية ونزعات الغضب

---

١ – الزخرف : الآية ٣٢

٢ – الزخرف : الآيتان ٥٢ – ٥٣

الحمقاء وما تصنعه في الأفراد والجماعات من انحراف في التفكير والسلوك واندفاع إلى التدمير والعنف .

الأمر الذي ظهر بوضوح في نشوب الحروب والعداوات بين أصحاب الجاهلية لأتفه الأسباب ، ربما من أجل كلمة عابرة ، وربما من أجل قبضة من الكلأ يقضمها حيوانٌ أعجم من أرض محمية لقبيلة من القبائل لإنسان من الناس .

وربما من أجل العناد الأجوف الذي لا يدل على شيء سوى فراغ رؤوس أصحابه من اليقين الذي يصنع الاتزان في التفكير والسلوك .

(والثانية)من سمات هذه الجاهلية — وهي مع الأسف موجودة في عصرنا وفاشية — وهي القصور التام في تصور علاقة الإنسان بالكون والله سبحانه خالق هذا الكون .

فأصحاب الجاهلية الأولى ، وكل الجاهليات يقيمون الأمور في دنياهم على أساس العلاقة بين السبب والمسبب ، أو بين العلة والمعلول . . غافلين عن الخالق والمدبر الأعظم لهذا الكون ، والذي يستطيع وحده سبحانه أن يقطع العلاقة بين الأسباب ومسبباتها أو يوجد المعلول من غير علة . . وهذه الغفلة عن الخالق سبحانه سمة بارزة من سمات أصحاب التفكير المادي — على اختلاف مستوياته — والتي يعجز أصحابها عن الارتقاء إلى ما وراء معطيات الحس البشري المحدود .

ولذا أنكر القرآن الكريم أن تستمر هذه الجاهلية في مجتمع

الإسلام في آيات تصف مواقف كثيرة ومختلفة منها قوله تعالى :

« ثُمَّ أنزل عليكُم مِنْ بعْدِ الغمِّ أمنَةً نُعاساً يغْشى طائِفة منكم ، وطائفة قد أهمتْهم أنفسُهم يظنُّونَ بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ الجاهلِيّة ، يقولُونَ : هلْ لنا من الأمرِ من شيء ؟ قل إن الأمرَ كلّه لله ، يخفون في أنفُسِهم ما لا يُبْدونَ لك ، يقولُون لو كانَ لنَا من الأمر شيءٌ ما قُتِلْنَا ها هُنَا ، قل لو كنتُم في بيُوتِكم لَبرَزَ الّذين كُتِبَ عليهِمُ القتلُ إلى مضَاجِعِهم وليَبْتَلِيَ اللهُ ما في صدُوركم وليُمَحِّص ما في قلوبِكم ، والله عليمٌ بذَاتِ الصُّدورِ »(١) .

ومنها قوله تعالى :

« وأَن احكُم بينَهم بما أنزلَ اللهُ ولا تتبع أهواءَهُم أن يفتِنُوكَ عنْ بعضِ ما أنزلَ اللهُ إليك » . (٢)

وقوله تعالى :

« أفحكْمَ الجاهليّةِ يبْغُونَ ومنْ أحسَنُ من اللهِ حكماً لقومٍ يُوقنون » . (٣)

ومنها كذلك قوله تعالى في سورة الفتح مشيراً إلى موقف العناد البغيض الأجوف الذي وقفه المشركون من الرسول وصحبه صلوات الله عليه يوم الحديبية وذلك في قوله تعالى :

١ ـ آل عمران : الآية ١٥٤ ٢ ـ المائدة : الآية ٤٩

٣ ـ المائدة : الآية ٥٠

« إذْ جعلَ الّذين كفَروا في قلُوبهم الحَميّة حَميّــة الجاهِليّة فأنزَل اللهُ سكينَتَهُ علَى رسولِه وعلَى المؤمِنين وألزمَهم كَلمة التقوى وكانوا أحقّ بها وأهلَها »(١) .

وصدق الله . . لقد كان المؤمنون يوم الحديبية أحق بما أنزل الله عليهم من سكينته لأنهم بالإيمان ، قد خرجوا من وطأة الجاهلية بحماقاتها الجوفاء التي تمنع — لمجرد العناد — المحلقين المقصرين المسالمين من زيارة بيت الله (٢) . أو التي تقيم الحروب أربعين عاماً متوالية لأن رجلا رمى ناقة فجرحها على ما هو مشهور في قصة حرب البسوس (٣) .

* * *

ولقد استطاع الإسلام أن يمحو آثار هذه الجاهلية من نفوس العرب منذ ظهوره ، ويُحلّ محلها قيمَهُ الرفيعة المتسامية التي أتاحت لبلال رضي الله عنه ونظرائه من المستضعفين أن يسبقوا الأغنياء وأصحاب الثراء . . واستمر ذلك طوال عصر النبوة والراشدين رضي الله عنهم .

فلما دخلت السياسة على الدين بعد الفتنة الكبرى إثر مصرع

---

١ ـ الفتح : الآية ٢٦

٢ ـ أنظر : سيرة ابن كثير بتحقيق مصطفى عبد الواحد ج ٢ ص ٣١٩ وما بعدها ، وانظر ابن هشام ج ١ ص ٣٢٨ ـ ٣٣٠ بتحقيق مصطفى السقا والابياري وعبد الحفيظ شلبي .

٣ ـ راجع ايام العرب للاستاذ على البجادي ، وحرب داحس والغبراء وحرب البسوس وغيرهما .

ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، واستمرت عصر بني أمية كله . .

ولما دخلت الفلسفة على الفكر الإسلامي ، وأتاحت الفرصة للتأويل والتحليل والمدارس والنحل . .

لما حدث ذلك جاء الاستشراق ليغلّب الفكر التجريبي وليأخذ الناس بعيداً عن نقاء الإيمان . . وينزلق بهم من جديد صوب جاهلية هذا الزمان .

* * *

أما عن المرأة في هذا المجتمع فكان الجاهلي يستشعر نحوها أمرين :

الأول : الإحساس بالعار والهوان الذي عبر عنه القرآن في قوله تبارك وتعالى :

« وإذا بُشِّر أحدُهم بالأنثى ظلَّ وجهُهُ مسودًّا وهو كظيمٌ . يتوارَى من القوم ِ منْ سُوء ما بُشِّر به أيمسكُه علَى هُونٍ أم يدُسُّه في التُّرابِ ألا ساءَ ما يحكُمون » . (١)

والثاني : الإحساس بثقل وطأتها الاقتصادية واعتبارها عبئاً كما قرر القرآن في حديثه عن الموءودة :

« وإذَا الموءودة سُئِلتْ . بأيِّ ذنبٍ قُتِلت » . (٢)

---

١ ـ النحل : الآية ٥٨ ٢ ـ التكوير : الآيتان ٨ ـ ٩

وقد عرف العرب في الجاهلية ألواناً من الأنكحة (صور الزواج) ليس بينها إلا واحد فقط جاء على صورة تنكح فيه المرأة بخطبة وولي ومهر . . والباقي وهو الكثرة الغالبة فاسد ممعن في الفساد . ومن ذلك نكاح الاستبضاع ، ونكاح التواطؤ ونكاح البغايا ونكاح الشغار وغيرها .

روى البخاري في صحيحه (١) عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم رضي الله عنها أخبرته أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء ، منها نكاح الناس اليوم ، يخطب الرجل إلى الرجل وليته ، أو ابنته فيصدقها ، ثم ينكحها .

ونكاح آخر : كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها : أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب .

وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد ، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع .

ونكاح آخر : يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع

---

٣ ــ جـ ٧ ــ ص ١٩ : كتاب النكاح ، باب من قال : لا نكاح إلا بولي طبعة دار الشعب ــ القاهرة .

حتى يجتمعوا عندها تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان – تسمي من أحبت باسمه – فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل .

والنكاح الرابع : يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها وهن البغايا ، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً ، فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لها القافة(١) ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطوه به (ألْحِق بنسبه) ودُعي ابنَه لا يمتنع من ذلك » .

وتمضي أم المؤمنين رضي الله عنها فتقول :

« فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم » .

وثمة ألوان أخرى من النكاح مثل :

« نكاح المقت » الذي يتزوج فيه الرجل زوجة أبيه وقد حرمه القرآن بنص الآية ، وذلك في قوله تعالى :

« ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا »(٢) .

---

١ – جمع قائف .. وهو الذى يدرك الشبه الدقيق بين الابن وابيه .
٢ – النساء : الآية ٢٢

ثم نكاح « الخدن » الذي حرم كذلك في قوله تعالى :

« وآتوهن أجورَهُنَّ بالمعروف محصنَاتٍ غَيرَ مُسافِحَاتٍ ولا متّخذَاتِ أخْدانٍ »(١) .

وكان من المألوف لديهم استبداد الرجل بأمر المرأة حتى ليمنعها من أن تتزوج بعده . قال تعالى :

« وإذَا طلّقتُم النِّساءَ فبلغنَ أجلهُنَّ فلا تَعْضُلُوهُنَّ أن ينكِحنَ أزواجَهن »(٢) .

هذا بالإضافة إلى ما سجله القرآن الكريم من أن بعض ساقطي المروءة من هؤلاء الجاهلين كان يتخذ من الإماء سبيلا إلى الكسب عن طريق البغاء الذي حرمه القرآن بصريح الآية :

« ولاَ تُكْرِهُوا فتَياتِكم على البِغَاء إنْ أردنَ تحصُّناً لتبتغُوا عرَضَ الحياةِ الدُّنيا »(٣) .

يضاف إلى ذلك ، ما كانت تعامل به من الحرمان من الميراث وكافة حقوق الرجل باعتبارها عالة عليه غير قادرة على الكسب أو الحرب .

كل هذا يعطي لنا دلالة على نوع التحول الإنساني الهائل الذي أحدثته رسالة صاحب السيرة صلوات الله وسلامه عليه

---

١ ــ النساء : الآية ٢٥
٢ ــ البقرة : الآية ٢٣٢
٣ ــ النور : الآية ٣٣

في الانتصاف للأنثى وتكريمها ، كما لم يحدث من قبل في جاهلية العرب أو كل الجاهليات .

المال وما يتصل به :

من حديث القرآن الكريم عن المال تبدو الحالة الاقتصادية لمجتمع الجاهلية قائمة على التجارة في رحلتي الشتاء والصيف المشهورتين ـ اللتين امتن الله تبارك وتعالى عليهم بها وبما أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف(١) .

وقد نشطت هذه التجارة في رحلتيها نشاطاً ملحوظاً يكفي في الدلالة عليه أن نعلم أن عير القرشيين التي كانت عائدة من الشام عند غزوة بدر كانت ألفا ، وأن قيمة ما كانت تحمله قدرت بخمسين ألف دينار(٢) . . وهو مبلغ ضخم إذا قورن بما كانت عليه أموال الناس آنذاك .

ولا شك في أن هذا النشاط التجاري خلف وراءه رصيداً من الثراء لدى مجموعات غير قليلة ، وتكونت بسببه طبقة مترفة عرفت رقة العيش وفنون النعيم إلى حد أن كان واحد منهم هو عبد الله بن جدعان التيمي يشرب الخمر في كأس من الذهب .

لكن هذا الغنى في أوله وآخره لم يحرر قلوب أصحابه آنذاك

---

١ ـ سورة الايلاف : الايات ١ ـ ٤

٢ ـ انظر السيرة النبوية للاستاذ الندوى ص٦٣ طبعة دار الشروق جـــدة

من العبودية للمال ومن شح النفس الذي يجعل أولئك المترفين اللاهين لا يجدون غضاضة في أن ينموا ثرواتهم بالربا مستغلين ضعف الضعيف ووطأ الحاجة على المحتاج وذلك ما سجله القرآن الكريم في عدد من آيات سورة البقرة وآل عمران والنساء (١) ، منكراً على أصحابه أشد الإنكار مطالباً إياهم برد ما أخذوه مما لا حق لهم فيه ، منذراً من يستمر منهم بحرب من الله ورسوله على نحو ما قال :

« فإنْ لَمْ تفعلوا فَأذنُوا بحربٍ مِنَ اللهِ ورسُوله ، وإنْ تُبتُم فلكم رؤُوس أَموالِكُم لا تَظْلِمُون ولَا تُظْلَمُون »(٢) .

هو حس غليظ إذن ذلك الذي كان يتحرك به وله المجتمع الجاهلي قبل البعثة المحمدية وحسبك من بشاعة أن يئد الرجل ابنته بيديه خشية العار أو خشية إملاقٍ أوكلاهما على السواء .. أو أن تقوم الحروب أعواماً طوالا من أجل أمر لا يؤبه له في موازين العقلاء ، على ما هو معروف ومشهور .

وقد كان جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه من أصدق الناس تصويراً لهذه الحالة وذلك في كلمته التي قالها للنجاشي إبان الهجرة الأولى إلى الحبشة حين قال :

---

١ ـ هى على الترتيب : البقرة ـ الآيات ٢٧٥، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، والآية ١٣٠ من ال عمران والآية ١٦١ من النساء

٢ ـ البقرة : الآية ٢٧٩

« أيها الملك كنا قوما جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف »(١) .

وكان لسيطرة المنزع الحسي على أهل الجاهلية العربية أثره غير المحدود في الاغراق الذي لا نظير له في عبادة الأصنام إلى حد أنه كان في جوف الكعبة وفي فنائها ثلاثمائة وستون صنما ، وكان في كل دار من دور مكة صنم يعبدونه (٢) .

وكما يقول الأستاذ الندوي : (٣)

« وهكذا وصلوا ـ أي أهل الجاهلية ـ رغم ما طبعوا عليه من الفتوة وخلال المروءة وكثير من الأخلاق العربية الكريمة ـ وصلوا إلى درجة سخيفة راعنة من الوثنية وعبادة الأصنام ، والتمسك بالخرافات والأوهام ، وجهل المفاهيم الدينية الصحيحة ، والبعد عن الابراهيمية الحنيفية السمحة . . وصلوا درجة لم يصل إليها إلا النادر من الشعوب والأمم » .

من أجل هذا كله كان ظهور الإسلام لا بد منه .

ومن أجل هذا كله استغرقت الآيات الداعية إلى التوحيد وتصحيح العقيدة ما يقارب ثلثي القرآن الكريم . .

---

١ ـ سيرة ابن هشام (١ : ٣٣٦)

٢ ـ السيرة النبوية للاستاذ الندوى (ص ٦٩) عن الاصنام لابن الكلبى .

٣ ـ المصدر السابق

كما كانت عملية التغيير التي أخذها النبي صلوات الله وسلامه عليه على عاتقه صعبة ومريرة استغرقت أكثر من نصف عمر الرسالة المحمدية منذ بعثته إلى وفاته صلوات الله وسلامه عليه ، على نحو ما نعرض له في هذا البحث .

بين يدي النُّبُوة

حادث الفيل : (١)

كان حادث الفيل بما اكتنفه من ظروف وما أحاط به من المعجزات دليلا لا شك فيه على أن الله تبارك وتعالى يريد للكعبة مستقبلا في الأرض لا تقوى قوة على هدمه . . وأن لها في مستقبل الأديان السماوية دوراً ليس لغيرها من الأديان . كما كان إرهاصاً بأن المنطقة على وشك أن تستقبل حدثاً عظيماً ، ونقطة لها دلالتها في تاريخ مولده صلى الله عليه وسلم في العام نفسه الذي حدث فيه هذا الحادث .

وتسجل كتب السيرة حديثاً مشهوراً دار بين عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم وسيد قريش وبين « أبرهة » قائد الجيش المغير على مكة ، وكان أبرهة قد أصاب لعبد المطلب مائتين من إبله فسعى إلى مقابلته . . وظن أبرهة أنه جاء ليفاوضه بشأن البيت حتى يعود فلا يهدمه ، لكنه حدثه عن الإبل . . فسقط في عينه بعد ما أكبره وبعد ما نزل له عن سريره . . ثم قال له :

---

١ ــ انظر السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص٤٤ ــ ٥٧ ، وانظر السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٢٨ ــ ٤١

(أتكلمني في مائتي بعير هي لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك و قد جئت لأهدمه وما تكلمني بشأنه ؟ فقال عبد المطلب : أما الإبل فهي لي ، وأما البيت فله رب يحميه) .

وانحازت قريش إلى الجبال والشعاب تخوفاً ونجاة . . وترقباً لما يصنع أبرهة بالبيت (١) أو ما يصنعه به رب هذا البيت . . وقام عبد المطلب ونفر معه يمسكون بحلق باب الكعبة يستصرخون رب البيت ويستنصرونه ويروي قوله من الشعر :(٢)

لا هم إن العبدَ يمنع رحلَه فامنع رحالك
لا يغلبَنَّ صليبهم .... ومِحَالهم أبداً مِحالك
إن كنتَ تاركَهم وقبلتَنا فأمرٌ ما بدا لك

وأصبح أبرهة يتجه بجيشه إلى البيت ليهدمه ، وهيأ فيله ليتقدم الجيش لكنه برك . . فحاولوا معه وضربوه فما تحرك ، فلما حولوا وجهه صوب اليمن قام يهرول .

وعندئذ أرسل الله طيراً كثيرة في مناقيرها حصوات لاتصيب أحداً من جيش أبرهة إلا أهلكته .

وأصيب أبرهة في جسده وخرج معهم تساقط أنامله . . حتى وصل صنعاء فمات فيها .

---

١ ـ الندوى (ص ٥٦)
٢ ـ الاصل اللهم وحذفت الالف واللام تخفيفا لضرورة الشعر

هذا الحادث سجله القرآن الكريم في قوله تعالى :

« أَلَمْ تَرَ كيفَ فَعلَ ربُّكَ بأصحابِ الفيل . أَلَمْ يجعلْ كيدَهُم في تضْليلٍ . وأرسلَ عليهم طيرًا أبابيلَ . ترميهمْ بِحجارةٍ من سِجِّيل . فجعلَهُم كعصفٍ مأكولٍ »(١) .

قلق غامض :

جاء في سيرة ابن كثير(٢) : روى الحافظان : البيهقي وأبو نعيم في « دلائل النبوة » من حديث يونس بن بكير عن يونس ابن عمرو عن أبيه عن عمرو بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة(٣) :

إني إذا خلوت سمعت نداءً ، وقد خشيت والله أن يكون لهذا أمر . .

قالت : معاذ الله ما كان ليفعل ذلك بك ، فو الله إنك لتؤدي الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث . .

« وكان صلى الله عليه وسلم يجد في نفسه قلقاً غامضا لايعرف مصدره ، ولا يخطر بباله لحظة ما أُكرم به من الوحي والرسالة ولا يحلم بذلك في يوم من الأيام » .

---

١ ـ سورة الفيل : الآيات ١ ـ ٥
٢ ـ سيرة ابن كثير ج ١ ص ٣٩٨
٣ ـ السيرة النبوية ص ٨٠

هذا المعنى يشير إليه القرآن الكريم في قوله تبارك وتعالى :

« وكَذلِكَ أوحيْنا إليكَ رُوحاً من أمرِنا ما كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتابُ وَلاَ الإيمانُ ، ولكنْ جعَلْنَاه نُورًا نهدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِن عِبادنا وإنّكَ لَتهدي إلى صِراطٍ مُستَقيمٍ »(١) .

وقوله تعالى :

« وما كنتَ ترجُو أنْ يُلْقَى إليكَ الكِتَابُ إلاّ رحمةً من ربِّك »(٢) .

من شمائل النبي :

سجلت كتب السيرة وكتب الشمائل النبوية ألواناً من الصفات والشمائل النبوية الرفيعة التي تمتع بها الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى ما رواه البخاري في صحيحه في باب (كيف كان بدء الوحي) من قول أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها للرسول صلى الله عليه وسلم لما جاءها فزعاً من غار حراء يقول زملوني زملوني . . فقالت رضي الله عنها :

« والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلّ وتكسب المعدوم وتقْري الضيف وتُعين على نَوائب الدهر » .

---

١ ـ الزخرف : الآية ٥٢

٢ ـ القصص : الآية ٧٨

ويشير القرآن إلى مثل هذه الشمائل في وصفه للرسول صلوات الله عليه في مثل قوله تعالى :

« لقدْ جاءكُم رسولٌ من أنفُسكم عَزيزٌ عليه ما عَنِتُّم ، حَريصٌ عليكم بالْمؤمنينَ رءُوفٌ رحيمٌ »(١) .

وفي قوله تعالى :

« وإنّكَ لَعلَى خُلُقٍ عَظيمٍ »(٢) .

نبوة محمد صلى الله عليه وسلم دعوة إبراهيم وبشارة عيسى :

روى ابن سعد (٣) عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشر بي عيسى ابن مريم .

وروى ابن كثير (٤) :

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر ، حدثنا الفرج بن فَضَالة حدثنا لقمان بن عامر ، سمعت أبا أمامة قال : قلت يا رسول الله ما كان بدءُ أمرك ؟

---

١ ـ التوبة : الآية ١٢٨   ٢ ـ القلم : الآية ٤

٣ ـ الطبقات ج ١ ص ١٤٨ ـ ١٤٩

٤ ـ السيرة لابن كثير ج ١ ص ٢٨٧

قال صلى الله عليه وسلم : « دعوةُ أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمّي أنه يخرج منها نورٌ أضاءت له قصور الشام».

هذا المعنى مشار إليه في القرآن في قوله تبارك وتعالى :(١)

« وإذْ يرفعُ إبراهيمُ القَواعِدَ من البَيْت وإسماعيلُ ربّنا تقبّلْ منّا إنّكَ أنتَ السّميعُ العليمُ . ربنا واجعلْنَا مُسلِمَيْن لَكَ . . إلى قوله تعالى :

«ربّنا وابْعَثْ فِيهم رَسولاً مِنهم يتلُو عليهم آياتِك ويعلّمهم الكِتابَ والحِكمةَ ويُزَكّيهم » . .

فهذه دعوة إبراهيم .

وبشرى عيسى ابن مريم به مذكورة في القرآن في قوله تعالى :

« وإذْ قالَ عيسَى ابنُ مريمَ يا بني إسرائيلَ إنّي رسُولُ الله إليكم مصدّقاً لمَا بينَ يَدَيّ من التوراة . وَمُبَشّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » . (٢)

ذكره صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل :

روى ابن كثير (٣) عن الإمام أحمد بسنده إلى عطاء بن يسار قال لقيتُ عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت أخبرني عن صفة

---

١ ـ البقرة : الآية ١٢٧   ٢ ـ الصف : الآية ٦

٣ ـ السيرة لابن كثير ج ١ ص ٣٢٧

رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة فقال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ، لا فظ ولا غليظ . . الخ » .

قال ابن اسحاق (١) :

« وقد كان فيما بلغني عما كان وَضَعَ عيسى ابن مريم فيما جاءه من الله في الإنجيل لأهل الإنجيل من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما أثبت يُحَنّس الحواريُّ لهم حين نسخ لهم الإنجيل عن عهد عيسى ابن مريم عليه السلام في رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم أنه قال :

« من أبغضني فقد أبغض الرب ، ولولا أني صنعت بحضرتهم صنائع لم يصنعها أحدٌ قبلي ما كانت لهم خطيئة و لكن من الآن بطروا وظنوا أنهم يعزّونني (يغلبونني) وأيضاً للرب :

ولكن لا بد من أن تتم الكلمة التي في الناموس إنهم قد أبغضوني مجّاناً أي باطلا فلو قد جاء الْمُنْحَمنّا هذا الذي يرسله الله إليكم من عند الرب وروح القدس ، هذا الذي من عند الرّب خَرَجَ ، فهو شهيدٌ عليّ وأنتم أيضاً ، لأنكم قديماً كنتم معي ، في هذا قلت لكم لكي لا تشكوا » .

---

١ - السيرة لابن هشام ج ١ ص ٢٤٨

قال ابن اسحاق :

والمنحمنا (بالسريانية) محمد . . وهو بالرومية البَرَقْلِيطِس صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وهذا المعنى مشار إليه في قول الله تبارك وتعالى(١) :

« الّذِينَ يتّبِعونَ الرّسولَ النّبِيَّ الأمّيّ الذي يَجِدُونَه مكتوباً عندهُم في التّوراةِ والإنْجيلِ يأمرهُم بالمعرُوفِ وينهاهم عن المنكرِ و يُحِلُّ لَهم الطّيبَاتِ و يُحرّم عليهم الخَبَائِثَ ويَضعُ عنهُم إصْرَهُم والأغْلالَ الّتي كَانتْ عليهمفالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النُّورَ الذي أُنْزلَ مَعَه أولئِكَ هم المفلِحُونَ » . (٢)

وقوله تعالى :

« الّذِينَ آتينَاهُم الكِتَابَ يعرفُونَهُ كما يَعرِفُون أبناءهم ، وإنّ فريقاً منهم ليكتُمونَ الحقّ وهمْ يَعْلَمونَ »(٣) .

وقوله تعالي :

« محمدٌ رسولُ الله والذين معه أشدّاءُ على الكفّار رحماءُ بينهم تراهم ركّعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، سيماهم

١ ـ الاعراف : الآية ١٥٧
٢ ـ البقرة : الآية ١٤٦
٣ ـ الفتح : الآية ٢٩

في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزرّاع ليغيظ بهم الكفار » . (١) الآية .

وقوله تعالى :

« وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لَمَا آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسولٌ مصدّقٌ لما معكم لتؤمِنُنّ به ولتَنصُرُنّه . قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » .

النبي الأميّ :

كان من حكمة الله تبارك وتعالى أن يكون الرسول أمياً لا يقرأ ولا يكتب . . ربما لتكون معجزة القرآن على لسانه صلى الله عليه وسلم أبلغ دليل على أنها من عند الله ، وإبعاداً لكل التهم والمظان السيئة عنه والتي حاول أعداء الإسلام أن يلصقوها به صلوات الله وسلامه عليه .

هذه الأمية قررها القرآن في قوله تعالى (٢) :

« وما كنتَ تَتْلُو من قَبلِهِ مِنْ كتَابٍ ولا تَخُطّه بيَمينكَ ، إذاً لارْتَابَ المُبطِلُون » .

---

١ ـ آل عمران : الآية ٨١

٢ ـ العنكبوت : الآية ٤٨

وقوله تعالى(١) :

« الَّذِينَ يَتَّبِعونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَه مكْتوباً عِندَهُم في التَّوْرَاةِ والإنجيل » .

وقوله تعالى(٢) :

« قل يا أيّها الناسُ إني رسولُ الله إليكُم جميعاً الذي له ملكُ السمواتِ والأرْضِ لا إله إلا هو يُحْيي ويُميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتّبِعُوه لعلكم تهتدون » .

وقوله تعالى(٣) :

« هو الذي بَعَثَ في الأمِّيِّينَ رسولاً منهُم يتلُو علَيهِم آياته ويُزَكّيهم ويعلمهم الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا من قبلُ لفي ضلالٍ مبين » .

النبي اليتيم :

قال ابن اسحاق(٤) :

« ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هلك وأمُّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حاملٌ به»

١ ـ الاعراف : الاية ١٥٧
٢ ـ الاعراف : الاية ١٥٨
٣ ـ الجمعة : الاية ٢
٤ ـ السيرة : ج ١ ص ١٦٧

وقال(١) :

« وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنةَ بنتِ وهْب وجدِّه عبد المطلب بن هاشم في كلاءة الله وحفظه ، ينبته الله نباتاً حسنا ، لما يريد الله به من كرامته .

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ست سنين توفيت أمه آمنةُ بنت وهب » .

هذا المعنى يشير إليه القرآن الكريم في قوله تعالى :

« ألم يجدك يتيماً فآوى(٢) » .

بدءُ الوحي وأوّلُ ما نزل من القرآن :

روى البخاري (٣) بسنده إلى عائشة رضي الله عنها قالت :

« أولُ ما بُدِيء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي ، الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثلَ فلق الصبح ، ثم حُبّب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه — وهو التعبد — الليالي ذوات العدد قبل أن ينزِع إلى أهله ، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ . قال : ما أنا بقاريء . قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم

١ ــ السيرة : ج ١ ص ١ ٢ ــ الضحى : الآية ٥

٣ ــ البخارى : ج ١ ص ٦ ط ٠عيسى الحلبى ــ باب كيف بدأ الوحى ؟

أرسلني فقال اقرأ ، قلت : ما أنا بقاريء ، قال فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال اقرأ ، ، قلت : ما أنا بقاريء ، فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني فقال :

« اقْرأ باسْمِ ربّك الّذِي خلَقَ . خلَقَ الإنْسَانَ منْ علَقٍ . اقْرأ وربُّكَ الأكرمِ » . . الحديث .

وهذا ما ذكره القرآن في سورة العلق :

« إقْرأ باسْمِ ربّكَ الّذي خلَق . خلَقَ الإنسانَ منْ علقٍ . اقْرأ وربُّك الأكرمُ . الّذِي علّم بالقلَمِ . علّم الإنْسَانَ ما لَمْ يعْلَم » . (١) .

المزمل المدثر صلوات الله عليه :

وفي حديث البخاري المذكور آنفاً حول بدء الوحي تقول عائشة رضي الله عنها « . . . فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد ــ رضي الله عنها ــ فقال : زملوني . . زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع . . . » . الحديث .

هذا الحدث جاء تصويره في القرآن الكريم في صورة نداء خوطب به المصطفى صلوات الله عليه في قوله تعالى :

---

١ ــ العلق : الآيات ١ ــ ٥

« يا أَيُّها المزَّمِّلُ . قُم اللَّيْلَ إلاَّ قَليلاً » . (١) .

كما يروي البخاري بسنده إلى جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه وهو صلى الله عليه وسلم يحدّث عن فترة الوحي فقال في حديثه :

« بينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعتُ بصري ، فإذا المَلَكُ الذي جاءني بحراء ، جالسٌ على كرسي بين السماء والأرض ، فرعبت منه فرجعت فقلت : زملوني ... الحديث » .

هذا الحديث في تاريخ السيرة مذكور في قوله تبارك وتعالى في سورة المدثر :

« يا أيها المدثر » .

تحرك شفتيه صلى الله عليه وسلم عند الوحي :

روى البخاري(٢) في الصحيح بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما : قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة وكان مما يحرك شفتيه (أي ممن يحرك شفتيه) . . الحديث . وكأنه صلوات الله عليه كان يتعجل حفظ ما يوحى إليه .

هذه الحالة مذكورة في القرآن في قول الحق تبارك وتعالى في سورة القيامة :

---

١ ـ المزمل : الآيتان ١ ـ ٢

٢ ـ البخارى ج ١ ص ٧ ط٠عيسى الحلبى ـباب كيف كان بدء الوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

« لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِه . إنَّ علَيْنَا جَمْعَهُ وقُرآنَهُ . فَإذَا قَرَأنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرآنَهُ . ثُمَّ إنَّ علَيْنَا بَيَانَهُ »(١) . .

ويقول ابن عباس رضي الله عنهما في تتمة الحديث وبعد أن فسر الآيات :

« فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع ، فإذا انطلق جبريلُ قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما قرأه » .

أَوَ مُخْرِجِيَّ هُم ؟ :

في البخاري وكتب السيرة(٢) :

ان ورقة بن نوفل لما سمع بما حدث للرسول صلى الله عليه وسلم في الغار قال :

« والذي نفسي بيده إنّك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ، وأن قومك سيكذبونك ويؤذونك ويخرجونك ويقاتلونك » . فقال صلى الله عليه وسلم متعجباً : « أو مخرجي هم ؟ ؟ » .

---

١ ـ القيامة : الآيات ١٦ ـ ١٩

٢ ـ انظر البخارى ج ١ ص ٧ باب كيف كان بدء الوحى وانظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٥٤ ، وانظر سيرة ابن كثير ج ١ ص٣٩٩ ط٠الحلبى

هذا الإخراج يصفه القرآن في قوله تبارك وتعالى في سورة محمد :

« وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرِيَةٍ هي أَشدُّ قوةً من قَريَتِكَ الَّتي أخرجَتْكَ أهلكنَاهُم فلاَ نَاصِرَ لَهم » (١) .

وقوله تعالى(٢) :

« وأَخرِجُوهُمْ مِنْ حَيثُ أخرَجُوكم » .

وقوله تعالى(٣) :

« إنّما يَنْهاكُم اللهُ عَنِ الّذِينَ قَاتَلوكُم في الدِّين وأَخرجُوكُم منْ دِيَارِكُم وظَاهَرُوا على إخْراجِكُم» .

وقوله تعالى(٤) :

« وإذ يمكُر بك الذين كفروا ليُثْبِتوك أو يقتُلوك أو يخرجوك ». الآية .

الجهر بالدعوة :

ذكر ابن هشام (٥) :

« ثم ان الله عز وجلّ أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن

---

١ ـ سورة محمد : الاية ١٣
٢ ـ البقرة : الاية ١٩١
٣ ـ الممتحنة : الاية ٩٩
٤ ـ الانفال : الاية ٣٠
٥ ـ السيرة ج ١ ص ٢٨٠

يَصْدَعَ بما جاءه منه وأن ينادي الناس بأمره ، وأن يدعو إليه ، فكان بين ما أخفى رسوله صلى الله عليه وسلم أمره واستتر له إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين ـ فيما بلغني ـ من مبعثه » .

وروى مثله ابن كثير (١) فيما نقله عن الإمام أحمد بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال :

لما أنزل الله « **وأنْذِرْ عشيرتك الأقربين** » أتى النبي صلى الله عليه وسلم الصفا فصعد عليه ثم نادى « يا صباحاه » . فاجتمع النّاس إليه بين رجل يجيءُ إليه ورجل يبعث رسوله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يا بني عبد المطلب ، يا بني فهر ، يا بني كعب : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم صدقتموني ؟

قالوا : نعم .

قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » .

هذا المعنى يعبر عنه القرآن في قوله تعالى :

« وقُلْ إنّي أنَا النّذِيرُ المُبين »(٢) .

وفي قوله تعالى :

« فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين »(٣) .

---

١ ـ السيرة ج ١ ص ٤٥٥ ـ ٤٥٦ ٢ ـ الحجر : الآية ٨٩
٣ ـ الحجر : الآية ٩٤

وفي قوله تعالى :

« وانذر عشيرتك الأقربين »(١) .

وفي قوله تعالى :

« يا أيها المدثر . قم فأنذر »(٢) .

فترة الوحي :

قال ابن هشام : قال ابن اسحاق(٣) :

« ثم فتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة حتى شق عليه ذلك فأحزنه ، فجاءه جبريل بسورة الضحى ، يقسم له ربه ، وهو الذي أكرمه بما أكرمه به ما ودعه ربه وما قلاه » .

فقال تعالى :

« والضُّحَى واللَّيْلِ إذَا سَجَى . ما ودَّعكَ ربُّكَ وما قَلَى . وَللآخِرَةُ خيرٌ لكَ من الأولَى . ولَسوْفَ يعطِيكَ ربُّك فترْضَى » . الآيات .

مقالات المشركين في الرسول صلى الله عليه وسلم :

جاء في سيرة ابن هشام (٤) أن نفراً من قريش اجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة ،كان ذا سن فيهم وقد أظلهم الموسم وخافوا أن

---

١ ـ الشعراء : الآية ٢١٤ ٢ ـ المدثر : الآيتان ١ ـ ٢

٣ ـ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٥٧

٤ ـ ج ١ ص ٢٨٨ ، وذكر مثله ابن كثير في السيرة ج ١ ص ٤٩٨ ـ ٥٠٢

تأتي وفود الحجيج فتسمع بأمر النبي صلى الله عليه وسلم فتستجيب له فأرادوا أن يجمعوا رأياً يصفونه به ليحولوا بينه وبين الناس .

فسألهم الوليد : قولوا أَسْمَعْ . .

قالوا : نقول كاهن .

قال : والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه .

قالوا : فنقول مجنون .

قال ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقة ولا وسوسته .

قالوا : فنقول شاعر .

قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كلّه رجزه وهَزَجه ، وقَرِيضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر .

قالوا فنقول ساحر .

قال : ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنعتهم ولا عقدهم .

قالوا : فما نقول : يا أبا عبد شمس ؟

قال : والله إنَّ لقوْلِه لَحلاوةً ، وإن أصله لعذْق (١) ،

---

١ ـ العذق .. النخلة .. والمراد اصله ثابت

وإنّ فرعه لجناة (١) ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته .

ونظير هذا في القرآن قوله تعالى (٢) :

« ومنْهُم منْ يستمع إليكَ وجعَلْنَا علَى قُلُوبِهِمْ أكِنّةً أن يفْقَهُوه وفي آذانِهِمْ وقْرًا وإنْ يروْا كلّ آيةٍ لاَ يؤمِنُوا بِهَا حتّى إذَا جاءُوكَ يُجَادلونَكَ يقُولُ الّذِينَ كفَروا إنْ هَذَا إلاّ أسَاطِيرُ الأوّلِينَ » .

وقوله تعالي (٣) :

« وإذَا تُتْلى علَيهم آياتُنا بيّناتٍ قالُوا قدْ سمِعْنَا لوْ نَشَاءُ لقُلْنَا مِثلَ هذَا إنْ هذَا إلاّ أساطِيرُ الأوّلِينَ » .

وفي قوله تعالي (٤) :

« . . . ولَئِنْ قلتَ إنّكم مبعُوثُونَ منْ بعْدِ الموْتِ ليقولنّ الّذِينَ كفَرُوا إنْ هذَا إلاّ سحرٌ مُبِينٌ » .

---

١ ـ الجناة : ما يجنى من الثمر ٢ ـ الانعام : الآية ٢٥

٣ ـ الانفال : الآية ٣١ ٤ ـ هود : الآية ٧

وفي قوله تعالى : (١)

« وقالُوا يا أيُّها الّذي نُزِّلَ عليه الذّكرُ إنّكَ لَمجنونٌ » .

وقوله تعالى : (٢)

«وإذا قِيلَ لَهم ماذا أنزَلَ ربُّكم قالُوا أساطِيرُ الأوّلينَ».

وقوله تعالى : (٣)

« وقالُوا أضْغاثُ أحلامٍ بَلْ افتراهُ بلْ هُوَ شاعِرٌ فليأتِنا بآيةٍ كما أُرسِلَ الأوّلُون » .

وقوله تعالى : (٤)

« لقدْ وُعِدْنا نحنُ وآباؤُنا هذا مِنْ قبلُ إنْ هذا إلاّ أساطِيرُ الأوّلِينَ » .

وقوله تعالى : (٥)

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين » .

---

١ ـ الحجر : الاية ٦
٢ ـ النحل : الاية ٢٤
٣ ـ الانبياء : الاية ٥
٤ ـ المؤمنون : الاية ٨٣
٥ ـ سورة سبأ : الاية ٤٣

وقوله تعالى : (١)

« وما علّمناهُ الشِّعرَ وما ينبغي لهُ ، إنْ هُو إلاّ ذِكرٌ وقرآنٌ مُبينٌ » .

وقوله تعالى : (٢)

« ويقولُونَ أئِنّا لتارِكُوا آلِهتِنا لِشاعرٍ مجنُونٍ » .

وقوله تعالى : (٣)

« وعجِبُوا أنْ جاءهم مُنذِرٌ منهم وقالَ الكافِرونَ هذا ساحِرٌ كذّابٌ » .

وقوله تعالى : (٤)

« ولمّا جاءهُم الحقُّ قالُوا هذا سِحرٌ وإنّا بِهِ كافِرُونَ ».

وقوله تعالى : (٥)

« أم يقولُون افتَراه قلْ إنْ افتَريتُهُ فلا تملِكُون لى منَ الله شيئاً » .

وقوله تعالى : (٦)

« فذكِّر فما أنتَ بِنِعمةِ ربِّكَ بِكاهنٍ ولاَ مجنُونٍ ».

---

١ ـ يس : الآية ٦٩
٢ ـ الصافات : الآية ٣٦
٣ ـ سورة ص : الآية ٤
٤ ـ الزخرف : الآية ٤٣
٥ ـ الاحقاف : الآية ٨
٦ ـ الطور : الآية ٢٩

وقوله تعالى : (٨)

« أم يقولون شاعرٌ نتربّص به ريبَ المنونِ » .

وقوله تعالى : (٩)

« أم يقولون تقوّله بلْ لا يؤمنونَ » .

وقوله تعالى : (١٠)

« إنّه لقولُ رسولٍ كريم . وما هوَ بقولِ شاعرٍ قليلاً ما تؤمنونَ . ولا بقولِ كاهنٍ قليلاً ما تذكّرونَ » .

وقوله تعالى في حكاية حال الوليد(١١) :

« إنّه فكّر وقدّر . فقُتِلَ كيفَ قدّر . ثم قُتِلَ كيف قدّر . ثم نظر . ثم عبَس وبسَر . ثم أدْبر واستكبر . فقالَ إنْ هذا إلاّ سحرٌ يؤْثر . إنْ هذا إلاّ قولُ البشر » .

وقوله تعالى (١٢) :

« ومَا صاحبكُم بمجنُونٍ . ولقدْ رآهُ بالأفقِ المبين .

---

١ ـ الطور : الآية ٣٠
٢ ـ الطور : الآية ٣٣
٣ ـ الحاقة : الآيات ٤٠ ـ ٤٢
٤ ـ المدثر : الآيتان ٢٤ ـ ٢٥
٥ ـ التكوير : الآيات ٢٢ ـ ٢٥

وما هُو علىَ الغَيْبِ بضَنينٍ . وما هُوَ بقَوْلِ شيَطْاَنٍ رَجيمٍ » .

مقالات المشركين للرسول وإيذاؤهم له :

قال ابن اسحاق (١) ـ بتصرف :

ثم إن الإسلام جعل يفشو بمكة في قبائل قريش في الرجال والنساء ، وقريش تحبس من قدرت على حبسه ، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين .

ثم ان أشرافَ قريش من كل قبيلة اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة وقال بعضهم لبعض :

ابعثوا إلى محمد وخاصموه حتى تعذِروا فيه . فبعثوا إليه . . وكان مما قالوا :

« يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضنا عليك فإنك قد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلداً ولا أقل مالا ولا أشد عيشاً منا . . فسل ربك أن يسيِّر عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق » . . الخ .

---

١ ـ السيرة لابن هشام ج ١ ص ٣١٥ ـ ٣١٨، وروى مثله ابن كثير في السيرة ج ١ ص ٥٠١ ـ ٥٠٢

ونظير هذا في القرآن قوله تعالى (١) :

« ولَوْ أنَّ قرآناً سُيِّرتْ به الجبَال أو قُطِّعت به الأرضُ ، أو كُلِّم به الموتى ، بلْ لله الأمرُ جميعاً » .

وقوله تعالى : (٢)

« وقَالُوا لَنْ نُؤمنَ لكَ حتّى تَفْجُر لنا من الأرضِ يَنْبُوعاً . أو تكونَ لكَ جنّةٌ من نَخيلٍ وعنَبٍ فتفجِّر الأنهارَ خِلالها تَفْجِيراً . أو تُسقِطَ السّماءَ كما زَعمتَ علينا كِسفاً أو تأتِيَ باللهِ والملائكةِ قبيلاً . أو يكونَ لكَ بيتٌ من زُخْرفٍ أو تَرقَى في السّماءِ ولنْ نُؤْمنَ لِرُقِيّكَ حتّى تُنزِّل علينا كتاباً نقرؤُه قلْ سبحَانَ ربِّي هلْ كنتُ إلاَّ بشرًا رسولاً » .

وقال ابن اسحاق : (٣)

« قالوا : فإذا لم يفعل هذا : فخذ لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك ملَكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسله فيجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي ، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم » .

---

٢ ــ الرعد : الآية ٣١ ٢ ــ الاسراء : الآيات ٩٠ ــ ٩٣

٣ ــ السيرة لابن هشام ج ١ ص ٣١٧

نظير هذا في القرآن قوله تعالى : (١)

« وقالُوا ما لِهذَا الرّسولِ يأكلُ الطّعامَ ويَمْشي في الأسوَاقِ ، لولا أُنْزِلَ إلَيه ملكٌ فَيكونَ مَعَه نذِيراً . أو يُلقَى إليه كَنزٌ أو تكونُ له جنّةٌ يأكلُ منها وقالَ الظّالِمُونَ إنْ تَتّبِعُونَ إلا رجلاً مسحوراً . انظُر كيفَ ضَرَبوا لكَ الأمثَالَ فضلّوا فلاَ يستَطِيعونَ سبيلاً . تَبارَكَ الّذي إن شاء جعلَ لكَ خيراً من ذلِكَ جنّاتٍ تجْري مِن تَحتِها الأنهارُ ويجعلْ لَكَ قُصوراً » .

وقوله تعالى : (٢)

« وما أرسلنَا قَبلكَ مِن المُرسَلين إلا أنّهم لَيأكُلونَ الطعامَ ويمْشُون في الأسوَاقِ وجعلنَا بعضَكم لبعضٍ فتنةً أتصبِرونَ وكانَ ربّك بصيراً » .

(أو ترقى في السماء) :

قال ابن اسحاق : (٣)

« فلما قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قام عنهم

١ ـ الفرقان : الآيات ٧ ـ ١٠ ٢ ـ الفرقان : الآية ٢٠

٣ ـ السيرة لابن هشام ج ١ ص ٣١٨

وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ابن عمة رسول الله ، قائلا له :

« يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم .

ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل .

ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل .

ثم سألوك أن تُعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل . .

فو الله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلما ثم ترقى وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ، ثم يأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك . . أنك كما تقول ، وأيم الله لو فعلت ذلك ماظننت أني أصدقك » . .

نظير هذا في القرآن قوله تعالى (١) :

« أوْ تَرقَى في السّماء ولنْ نُؤمِنَ لِرُقيّك حتّى تُنَزِّل علينَا كِتاباً نقرأه قُلْ سبحانَ ربِّي هلْ كنتُ إلا بشراً رسولاً ».

---

١ ـ الاسراء : الآية ٩٣

الهُمزة اللُمزة :

قال ابن اسحاق (٢) (١ : ٣٨٢) وامية بن خلف بن وهب من حذافة بن جمح ، كان إذا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم همزه ولمزه . قال ابن هشام والهمزة الذي يشتّم الرجل علانية ويكسر عينيه عليه ويغمز به .

ونظير هذا في القرآن قوله تعالى (٣) :

«ويلٌ لكل هُمزةُ لمزة . الذي جمع مالاً وعدّده . يحسَب أنّ مالَه أخلده . كلا ليُنبذَن في الحُطمة . وما أدراك ما الحطمة . نارُ الله الموقدة . التي تطّلعُ على الأفئدة . إنّها عليهم مُؤصدة . في عَمد ممددة » .

سَبُّ الإله :

قال ابن كثير : (٤)

ولقي أبو جهل بن هشام رسول الله صلى الله عليه وسلم — فيما بلغني — فقال له :

« والله يا محمد لتتركن سب آلهتنا ، أو لنسبنّ إلهك الذي تعبد » .

---

١ ــ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٨٢
٢ ــ الهمزة : الآيات ١ ــ ٨
٣ ــ السيرة لابن كثير ج ١ ص ٥١

يتحدث القرآن الكريم عن هذا في قوله تعالى : (١)

« ولا تَسُبُّوا الّذِينَ يدْعُونَ مِن دُونِ الله فيَسُبُّوا اللهَ عدواً بغَيرِ علمٍ » .

عظيم القريتين :

قال ابن اسحاق (٢) :

« والوليد بن المغيرة قال : أيُنزّل على محمد وأُترك وأنا كبير قريش وسيدها ؟ ويُترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف ؟ ونحن عظيما القريتين ؟

يتحدث القرآن عن هذا في قوله تعالى (٣) :

« وقالُوا لَولا نُزِّل هذَا القرآنُ علَى رَجلٍ منَ القريتَين عَظيمٍ . أهُم يقْسِمونَ رحمةَ ربّك نحنُ قَسَمْنا بينهُم مَعيشَتَهُم في الحَياةِ الدُّنيا ورفَعْنَا بعضَهم فوقَ بعضٍ دَرَجاتٍ ليتّخِذَ بعضُهم بعضاً سُخرِياً ورحمةُ ربّكَ خيرٌ مما يجْمعونَ » .

---

١ ـ الانعام : الآية ١٠٨

٢ ـ السيرة لابن هشام ص ٣٨٧

٣ ـ الزخرف : الآيتان ٣١ ـ ٣٢

أُبَيُّ بن خلف وعُقبة بن أبي معيط :

في سيرة ابن هشام ما خلاصته : (١)

إن أبي بن خلف وعقبة كانت بينهما صداقة قوية وسمع أبَيٌّ بأن عقبة جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع منه فأعلن قطيعته ما لم يذهب إلى محمد صلى الله عليه وسلم ويتفل في وجهه . . وقد فعلها اللعين .

وفي هذا يقول الحق تبارك وتعالى (٢) :

« وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ علَى يديْهِ يقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخذتُ مع الرَّسولِ سبيلاً . يَا ويْلَتَى لَيتَنِي لم أتَّخِذْ فلاناً خليلاً . لَقد أضلَّنِي عن الذِّكْر بعدَ إذْ جاءَنِي وكانَ الشَّيطانُ للإنسانِ خَذُولاً » .

ومشى أُبَيٌّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم بالٍ قد تحطم فقال يا محمد: تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أَرَمَّ — أي بلي — ثم فته في يديه ، ثم نفخه في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

١ ــ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٨٧

٢ ــ الفرقان : الآيات ٢٧ ــ ٢٩

وفي هذا يقول الحق تبارك وتعالى : : (١)

« وَضَرَبَ لنَا مثلاً ونَسِيَ خلْقَه قالَ منْ يُحيي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قلْ يُحْيِيهَا الّذي أنشأهَا أولَ مرّةٍ وهو بكل خَلقٍ عليمٌ » .

أبو جهل والرسول صلى الله عليه وسلم :

قال ابن اسحاق : (٢)

قال أبو جهل :

« يا معشر قريش ان محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وشتم آلهتنا وإني أعاهد الله لأجلسنّ له غداً بحجر ما أُطيق حمله ، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه فأسلموني عند ذلك أو امنعوني فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم » .

نظير هذا في القرآن قوله تعالى : (٣)

« أرأيتَ الّذي ينْهَى عبدًا إذَا صلّى . أرأيتَ إنْ كَانَ علَى الْهُدى . أو أمَر بالتّقوى . أرأيتَ إنْ كذّبَ وتولّى .

---

١ ـ يس : الآيتان ٧٨ ـ ٧٩
٢ ـ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣١٩
٣ ـ العلق : الآيات من ٩ ـ ١٩

أَلَمْ يعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يرَى . كَلاَّ لَئِنْ لَمْ ينْتَهِ لَنَسْفعاً بالنَّاصيةِ . نَاصيةٍ كَاذبةٍ خَاطِئَةٍ . فَلْيدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ . كَلاَّ لا تُطِعْهُ واسْجُدْ واقْتَرِبْ » .

تَبّاً لَكَ أَلهذَا جمعتَنا :

كان أبو لهب من أشد الناس إيذاءً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما يقول ابن كثير (١) :

« وكان من أشد الناس عليه عمه أبو لهب واسمه عبد العزى ابن عبد المطلب وامرأته أم جميل أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان .

ويقول ابن كثير (٢) :

أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما أنذر قومه . . وقال لهم « إنّي نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد » . قال له أبو لهب : تبـــاًّ لك سائر اليوم (ألهذا جمعتنا ؟) . أما دعوتنا إلا لهذا ؟

والقرآن يسجل هذا في قوله تبارك وتعالى : (٣)

« تَبّتْ يدَا أبي لَهبٍ وتَبّ . ما أَغنَى عنهُ مالُه وما كَسَبَ . سَيَصْلَى نارًا ذاتَ لَهبٍ » .

---

١ ــ سيرة ابن كثير ج ١ ص ٤٦١ ط٠الحلبى
٢ ــ سيرة ابن كثير ج ١ ص ٤٥٦ ومثله مــا أورده ابن هشـــام فى السيرة ج ١ ص ٣٨٠
٣ ــ المسد : الآيات ١ ــ ٣

حمّالة الحطب :

وكانت أم جميل (١) ـ امرأة أبي لهب ـ تحمل الشوكَ فتطرحه على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يمـــر فسماها القرآن « حمالة الحطب » . . فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس بالمسجد وبيدها حجر تريد أن تضربه به فصرف الله بصرها عنه فلا ترى إلا أبا بكر فقالت : يا أبا بكر أين صاحبك ؟ فقد بلغني أنه يهجوني والله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه ، أما والله إني لشاعرة ، ثم قالت شعراً تهجو به الرسول :

مُذَمّماً عَصَيْنـــا وأمـــره أبيْنـــا
وَدِينَه قَلَيْنـــا

ثم انصرفت فقال أبو بكر يا رسول الله أما تراها رأتك ؟ فقال له صلى الله عليه وسلم: ما رأتني لقد أخذ الله بصرها عني .

حديث أم جميل هذه مذكور في قوله تعالى (٢) :

« وامرأتُه حمّالَة الحَطَب . في جيدهَا حبلٌ منْ مَسَد » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

---

١ ـ ابن هشام ج ١ ص ٣٨١ ـ ٣٨٢
٢ ـ سورة المسد : الآيتان ٤ ـ ٥

ألا تعجبون لما يصرف الله عني من أذى قريش يسبون ويهجون مذمماً وأنا محمد (١) ؟

طعام الأثيم :

قال ابن اسحاق (٢) :

وأبو جهل بن هشام لما ذكر الله تعالى شجرة الزّقّوم تخويفاً لهم قال :

يا معشر قريش . .

أتدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد ؟ قالوا : لا . .

قال ـ متهكماً ـ إنهـا عجوة يثرب بالزبد ، والله لئن استمكنا منها لنتزقمنها تزقما .

عن هذا يتحدث القرآن الكريم واصفاً أبا جهل بالأثيم منذراً له بسوء المنقلب ، يوم تأخذه زبانية جهنم إلى سواء الجحيم فتذيقه فيها من عذابين : عذاب الجحيم يصب من فوق رأسه ، وعذاب نفسي تتابعه به الزبانية وهم يقولون : ذق إنك أنت العزيز الكريم . وذلك في قوله تعالى (٣) :

« إنَّ شَجرةَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الأثِيمِ . كَالمُهْلِ

---

١ ـ ابن هشام ج ١ ص ٣٨٢
٢ ـ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٨٨
٣ ـ سورة الدخان : الآيات ٤٣ ـ ٥٠

يَغْلِي في البُطُون . كَغَلْيِ الحَمِيم . خُذُوهُ فاعْتِلُوه إلى سَوَاء الجَحِيم . ثُمَّ صُبُّوا فوقَ رأسهِ مِنْ عذَابِ الحَمِيم . ذُقْ إنّك أنتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ . إنَّ هذَا مَا كنتُم بهِ تَمْتَرُون».

لا أريد منكم مالاً . . ولا أسألكم عليه أجرًا :

قال ابن اسحاق (١) :

« اجتمع نفر من رؤساء قريش فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له :

يا محمد انا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخلَ على قومه مثل ما أدخلت على قومك .

لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسببت الآلهة وسفهت الأحلام وفرقت الجماعة فما بقي أمرٌ قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك – أو كما قالوا له –

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً .

وإن كنت تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا .

وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا .

---

١ ـ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣١٦ ـ ٣١٧ وانظر مثله في سيرة ابن كثير ج ١ ص ٤٧٨ ـ ٤٨١

وإن كان هذا الذي يأتيك رَئياً تراه قد غلب عليك ــ وكانوا يسمّون التابع من الجن رئياً ــ بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرّئك منه ، فقال صلى الله عليه وسلم :

ما بي ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم .

ولكن الله بعثني إليكم رسولا وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلّغتكم رسالات ربّي ونصحت لكم فإن تقبلوا منّي ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة .

وإن تردّوه عليّ أصبرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم ، أو كما قال صلى الله عليه وسلم .

ونظير هذا في القرآن قوله تعالى : (١)

« قُلْ ماسألتكُم من أجرٍ فهُوَ لكم ، إنْ أجرِيَ إلاّ علَى الله وهوَ علَى كلِّ شيءٍ شهِيدٌ » .

وقوله تعالى : (٢)

« قلْ لاَ أسألكُم عليه أجرًا إنْ هو إلا ذكرَى للعَالَمِين » .

١ ــ سورة سبأ : الآية ٤٧

٢ ــ الانعام : الآية ٦

وقوله تعالى (١) :

« وما أكثرُ النَّاسِ ولَوْ حرَصْتَ بمؤمنين . وما تسألهُم علَيْه من أجرٍ إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ للعالَمين » .

وقوله تعالى (٢) :

« أم تسألهُم خرْجاً فَخَراجُ ربكَ خيرٌ وهو خيْرُ الرَّازِقينَ » .

وقوله تعالى (٣) :

« قلْ ما أسألكُم علَيهِ مِنْ أجرٍ إلاَّ منْ شَاءَ أنْ يتَّخِذَ إلى رَبِّه سَبيلاً » .

وقوله تعالى (٤) :

« قلْ لا أسألكُم عَليه أجرًا إلاَّ المَودَّةَ في القُرْبى » .

وقوله تعالى (٥) :

« أمْ تسْألُهُم أجرًا فَهُمْ مِن مغْرَمٍ مُثْقَلُون».
ويلٌ لكلِّ أفاك أثيم » :

---

١ ـ يوسف : ١٠٣ ـ ١٠٤
٢ ـ المؤمنون : الآية ٧٢
٣ ـ الفرقان : الآية ٥٧
٤ ـ الشورى : الآية ٢٣
٥ ـ الطور : الآية ٤٠ ومثلها فى سورة القلم الآية ٤٦

روى ابن كثير قال (١) :

قال الإمام أحمد حدثنا وكيع ، عن حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد أُوذيتُ في الله وما يؤذَى أحَد ، وأُخِفْتُ في الله وما يُخَاف أحَد ، ولقد أتت عليَّ ثلاثون بين يومٍ وليلة وما لي ولبلال ما يأكله ذو كبد رطبة إلا ما يواري إبطُ بلال » .

ولقد وقفنا على خبر بعض من آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيّنا ما قالت عنهم كتب السيرة وما نزل بشأنهم من القرآن . وهذا واحدٌ منهم .

النضر بن الحارث بن علقمة بن كلْدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي (٢) .

كان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً فدعا فيه إلى الله تعالى ، وتلا فيه القرآن ، وحذّر فيه قريشاً مما أصاب الأمم الخالية ، خَلَفَه النضر في مجلسه إذا قام فحدّثهم عن رستم وعن اسفنديار وملوك فارس ثم يقول لهم :

والله ما محمد بأحسن حديثاً مني ، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبتها .

---

١ ـ السيرة لابن كثير ج ١ ص ٤٧٢ ـ ٤٧٣ وأخرجه الترمذى وابن ماجة من حديث حماد بن سلمة ، وقال الترمذى حديث حسن صحيح

٢ ـ السيرة لابن هشام ج ١ ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤

قال ابن اسحاق (١) :

« وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول ـ فيما بلغني ـ نزل فيه ـ أي في النضر هذا ـ ثمان آيات من القرآن :

قول الله عز وجل :

« إذَا تُتْلَى علَيه آياتنا قال : أساطيرُ الأوَّلين » .

وكل ما ذكر فيه الأساطير من القرآن .

عن النضر هذا يقول القرآن الكريم :

« وقَالُوا : أساطيرُ الأوَّلين اكْتَتَبَهَا فهي تُمْلىٰ عَلَيْه بُكْرةً وأصيلاً . قُلْ أنْزَلَه الذي يعلم السِّرَّ في السَّمَوات والأرْضِ إنه كان غفوراً رحيماً » .

ويقول تبارك وتعالى : (٢)

« وَيْلٌ لكلِّ أفّاكٍ أثيم . يَسْمَعُ آياتِ الله تُتْلى عليه ثمَّ يُصِرُّ مستكبرًا كأنْ لم يسْمَعْها كأنّ في أذُنَيْهِ وَقْرًا فبشِّرهُ بعذاب أليم . وإذَا علِمَ من آياتنا شيئاً اتَّخَذَها هُزُواً أولئك هم عذابٌ مُهين . مِنْ وَرَائِهم جَهَنَّم ولاَ يُغْني عنهم مَا

---

١ ـ السيرة لابن هشام ج ١ ص ٣٢١

٢ ـ الجاثية : الايات ٧ ـ ١٠

كسَبُوا شيئاً ولا ما اتخذوا مِن دُون الله أولياءَ ولهم عذابٌ عظيمٌ » .

ويلاحظ هنا أن تصوير النصّ القرآني لما كان يقوم به النضر ابن الحارث وأمثاله قد جاوز تصرّفه فرداً وانتقل إلى رسم صورة عامة له ولكل أفّاك مثله يكذب على الله ويكذب على الناس ويحاول بباطله الذي يرويه من أقاصيص الفرس أن يصدّ الناس عن الحق وعن سبيل الله ، وكأنه لم يستمع إلى هذا الحق من الرسول صلى الله عليه وسلم لوقْر في أذنيه . .

ولأنه مصرٌ على الباطل ومستكبر على الحق فتراه حتّى لو أصغى إلى آيات الله وعلم منها شيئاً لا يتبدل موقفه بل يتخذ آيات الله هزواً ، ومن ثم فلا مصير إلا النار وعذابها العظيم . .

وهكذا نرى أن ما جاء في القرآن عن « النضر وأمثاله » أعظم وأوفى مما جاء في كتب السيرة . . لأن القرآن أشار إلى الحدث وصوّر منه النموذج ، ثم حلّل دوافعه وبواعثه وخلُص أخيراً إلى حكم الله فيه . . وهذا كله ما لم يرد في كتب السيرة .

* * *

الحلاّفُ المهين :

ومن الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم واستهزأوا به ، الأخنس بن شريق (٢) بن عمرو بن وهب الثقفي حليف

١ ـ ابن هشام ج ١ ص ٣٨٦ وابن كثير ج ٢ص ٥٤

بني زهرة ، وكان من أشراف القوم وممن يُستمع منه ، فكان يصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويردّ عليه . . وهذا يحمل ما أوردته بشأنه كتب السيرة . .

أما القرآن الكريم فيتخذ منه كما اتخذ من أمثاله نموذجاً للسلوك غير السويّ لنماذج من البشر لا عاصم لها من خلق ، ولا ضابط لها من عقل راجح أو فكر متزن ، وكل ما تعتد به هو المال والبنون فتحملها وفرة المال وعصبية الأهل على السلوك العدواني غير السويّ بين الناس وذلك ما جاء في قول الحق تبارك وتعالى عنه : (١)

« ولا تُطِعْ كلَّ حلاّفٍ مَهينٍ . هَمّازٍ مَشّاءٍ بِنَميم . مَنّاعٍ للخيرِ معتدٍ أثيمٍ . عُتُلٍّ بعد ذلك زَنيم . أنْ كانَ ذا مالٍ وبنين . إذا تُتْلى عليه آياتُنا قالَ أساطيرُ الأوّلين . سَنَسِمُهُ على الخُرْطوم . »

وتقرير أنه « زنيم » (٢) والحديث عن المال والبنين في حياته يشيران بوضوح إلى العلة الكامنة وراء المسلك الشاذ لأعداء الحق في كل مكان وبيان أنه لا يشذ عن الحق إلا الشواذ عن سواء التكوين من الناس .

---

١ ـ سورة القلم : الآيات ١٠ ـ ١٦

٢ ـ الزنيم هو الرجل غير صريح النسب والذى هو الدعى فى القوم ومنه قول الشاعر :

زنيم تداعاه الرجال زيادة ... كما زيد فى عرض الاديم الاكارع

ويوم يعضّ الظالم على يديه :

والظالم المشار إليه هنا هو عقبةُ بن أبي معيط (١) وكان وأُبَيّ ابن خلف بن وهب بن حذافة بن جُمح متصافيين حسنا ما بينهما ، وكانا يعاديان الرسول صلى الله عليه وسلم . .

وذات يوم بلغ أُبَيّ بن خلف أن عقبة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس إليه واستمع منه فأتاه فقال له :

ألم يبلغني أنك جالستَ محمداً وسمعتَ منه ؟ ! وجهي من وجهك حرام أن أكلمك – واستغلظ من اليمين – إن أنت جلست إليه أو سمعت منه ، أو إن لم تأته فتتفل في وجهه ! !

وتقول السيرة : ففعل ذلك – أي تفل في وجه الرسول صلوات الله عليه . . فعل ذلك عدو الله عقبة بن أبي معيط لعنه الله . .

هذا النموذج تحدث عنه القرآن في قول الحق تبارك وتعالى : (٢)

« وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ على يَدَيْه يقُولُ يا لَيْتَنِي اتّخَذْتُ مع الرَّسُول سبيلاً . يا ويْلَتَى لَيْتَنِي لم أتّخِذْ

---

١ – انظر ابن هشام ج ١ ص ٣٨٧ ، وابن‌كثير ج ٢ ص ٥٤ وانظر البخارى ج ٢ ص ٣٢١ باب ما لقى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين بمكة .

٢ – الفرقان : الآيات ٢٧ – ٢٩

فلاناً خليلاً . لقد أضَلّني عن الذِّكْرِ بعْدَ إذْ جاءَني وكانَ الشّيطانُ للإنْسانِ خذولاً » .

ويلاحظ من وصف القرآن بالظالم أنه كان بمثابة حكم دقيق على ما فعله ابن أبي معيط مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحريض أبيّ بن خلف . . هو ظلمٌ من كل منهما لنفسه التي يوردها موارد التهلكة ، وظلم للحق ، وللرسول صلى الله عليه وسلم بما أساءا إليه . . والويلُ لهذا الظالم لنفسه والظالم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذا يعرضه التعبير القرآني وهو يعض بنان الندم في يوم لا ينفع فيه الندم متمنياً المستحيل أن يعود إلى دنياه فيعتذر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مما أساء إليه ، ويقطع ما بينه وبين قرين السوء الذي وسوس له كالشيطان . . والشيطان على الدوام خذولٌ للإنسان . .

* * *

وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه :

ومرة أخرى نرى الظالم أُبيّ بن خلَف (١) يمشي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بعظْم بالٍ قد ارْفَتّ (٢) فقال :

يا محمد أنت تزعُمْ أن الله يبعث هذا بعد ما أَرَمَّ (٣) ؟ ! . .

---

١ ـ ابن هشام ج ١ ص ٣٨٧ وابن كثير ٢/٥٥

٢ ـ تهشم وتحطم ٣ ـ بلى .

ثم فتّه بيده ، ثم نفخه في الريح نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم أنا أقول ذلك ، يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا ، ثم يدخلك الله النار .

هذا ما أوردته كتب السيرة . .

أما في القرآن الكريم فنرى الحدث يتحول إلى نموذج عام يهمل فيه أصل الحدث ويُشار فقط إلى سماته القابلة للتكرار ، ويلفت فيه الانتباه إلى البديهيات التي كان يجب ألا تنسى ، لأن من خلق الأشياء من العدم قادر بداهة وعقلا على أن يعيدها إذا فنيت ، لكن هذه البديهية لا تراها الأبصار إذا ضلت البصائر ولذا نبّه القرآن إليها وإلى نظائرها مما يبدو جديراً بالعجب والاعتبار ، كذلك الشجر الأخضر الذي تخرج منه بعد جفافه النار وذلك في قوله تعالى (١) :

« وضَرَبَ لنا مثلاً ونَسِيَ خلقَه قال : مَنْ يُحيي العِظامَ وهِيَ رَميمٌ . قُلْ يُحْييهَا الّذي أنشأها أوّلَ مَرّةٍ وهوَ بكلِّ خلقٍ عليمٌ . الذي جعَلَ لكم مِنَ الشّجر الأخضرِ نارًا فإذَا أَنتُم مِنْه تُوقِدُونَ . أَوَلَيْسَ الّذي خَلَقَ السّمواتِ والأرضَ بقادرٍ علَى أنْ يخْلُقَ مثلَهم بَلَى وهوَ الخلاّقُ

---

١ ـ (يس) ٧٨ ـ ٨٢ .

العَليمُ . إنّما أمرُهُ إذَا أرَادَ شيْئاً أن يقُولَ لهُ كُنْ فَيكُونُ».

نعم «كن فيكون» لأن هذا مناط قدرة الله ، وأمام قدرة الله لا يصعب شيء في الأرض ولا في السماء .

لقد تحول الحدث الصغير إلى درس كبير وهذا فرق ما بين السيرة في السيرة ، والسيرة في كتاب الله .

لا أعبدُ ما تعبدون :

جاء في كتب السيرة : (١) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطوف بالكعبة فاعترضه الأسودُ بن المطلب بن أسد بن عبد العزّى ، والوليد بن المغيرة ، وأميّة بن خلف ، والعاص ابن وائل السهمي وكانوا ذوي أسنانٍ في قومهم فقالوا :

يا محمد ، هلمّ فلْنعبدْ ما تعبد ، وتعبدُ ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت في الأمر ، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه .

هكذا جاء في السيرة حديثاً هادئاً في أمر ظن المشركون أنه قابل للمساومة .

أما في القرآن الكريم فقد صيغ الحدث بمثابة بيان أو إعلان تحذيري حاسم يقرر افتراق الطريق بين الكفر والإسلام في سورة

---

١ ـ ابن كثير ج ٢/٥٥ وابن هشام ج ٢ ص ٣٨٨

من ست آيات قصار تبدأ أربع منهن بحرف النفي « لا » ويتقدمهن نداء الإنذار ثم يتبعن بقرار الختام الذي تصبح معه السورة بآياتها أشبه شيء بالبلاغ الحربي الموجز الشديد الحاسم ، الذي لا مجال بعده لتردد أو جدال ، وذلك في قوله تبارك وتعالى (١) :

« قُلْ يا أيّها الكافِرونَ . لا أعْبُد ما تَعْبدُونَ . ولا أنتُمْ عابِدُونَ ما أعْبُد . ولا أنَا عابدٌ ما عَبدتُم . ولا أنتُم عابِدونَ ما أعبدُ . لكم دِينكُم ولِيَ دين » .

× × ×

لو كان خيراً ما سبقونا إليه :

قال ابن هشام(٢) : قال ابن اسحاق :

« وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس في المسجد وجلس إليه المستضعفون من أصحابه : خباب وعمار وأبو فكيهة ، وصهيب وأشباههم من المسلمين هزئت بهم قريش وقال بعضهم لبعض : هؤلاء أصحابه كما ترون أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ، لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقونا إليه . . وما خصهم الله به من دوننا .

هذا الموقف هو ما عبر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى :(٣)

---

١ ـ الكافرون : الآيات ١ ـ ٦
٢ ـ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣ ، وانظر سيرة ابن كثير ج ص ٨٣
٣ ـ الانعام : الآيات ٥٢ ـ ٥٤

« ولا تَطْرُدِ الّذِينَ يدْعُونَ ربّهم بالغَدَاةِ والْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وجْهَهُ ما علَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ من شَيْءٍ ومَا مِنْ حِسَابِكَ علَيْهِم مِنْ شَيْءٍ فتطرُدَهُم فتكُونَ مِنَ الظّالِمِينَ . وكذلِك فتَنّا بَعضَهمْ ببعضٍ ليقُولُوا أهؤلاء منّ اللهُ علَيْهم منْ بيْننا أليسَ اللهُ بأعلَم بالشّاكرينَ .

وإذا جاءك الذين يؤمنونَ بآياتنا فقلْ سلامٌ علَيكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تابَ من بعدِه وأصْلحَ فأنه غفور رحيم » .

ويلاحظ أن حديث القرآن الكريم عن الموضوع جاء تصحيحاً للنظرة الخاطئة لدى أولئك الجاهلين ، وتقريراً للمعيار الذي وضعه الإسلام منذ البداية لتقييم أعمال الناس فليس هو المال ولا الجاه ، ولكن علاقة العبد بخالقه ولذا فإن الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ أولى بصحبة الرسول صلى الله عليه وسلم من أولئك الفارغين .

ذاك أعجمي وهذا عربي :

قال ابن هشام(١) : قال ابن اسحاق

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فيما بلغني ـ كثيراً

١ ـ ابن هشام ج ٢ ص ٣٣ وابن كثير ج ٢ص ٨٣

ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني يقال له : جبر وهو عبدٌ لبني الحضرمي ، فكانوا يقولون ، والله ما يُعلِّم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا هذا النصراني – غلام بني الحضرمي .

عن هذا الموقف يتحدث القرآن الكريم فيشير إلى أساس الاتهام الذي كان المشركون يقولونه ويرددونه وهو أن القرآن ليس من عند الله وإنما هو افتراء من الرسول صلى الله عليه وسلم وحاشا له ، ويرد الزعم في وجوه أصحابه مقرراً أن القرآن بأمر الله قد نزل به الروح القدس ، وأن مزاعم المشركين متوقعة منهم ما داموا في ضلالة الشرك ، ولو قد ذاقوا حلاوة الإيمان لكان لهم من الرسول صلى الله عليه وسلم ومن القرآن شأن آخر وذلك في قوله تعالى (١) :

« وإذَا بدّلنا آيةً مكان آيةٍ والله أعلمُ بما ينزِّلُ قالُوا إنّما أنتَ مُفْتَرٍ بل أكثرُهُم لا يعلمُونَ . قلْ نزَّله روحُ القدُسِ منْ ربِّكَ بالحقِّ ليثبِّتَ الذينَ آمنوا وهدًى وبشرى للمسلمين .

ولَقَدْ نعلَمُ أنهُم يقولُونَ إنّما يعلِّمُهُ بشَرٌ لِسانُ الّذي يُلْحِدُونَ إليه أعجميٌّ وهذَا لِسانٌ عربيٌّ مُبين . إنّ الذينَ لا يؤمنونَ بآياتِ الله لا يَهديهمُ الله ولهم عذابٌ أليمٌ . إنّما يَفتري الكذِبَ الذين لا يؤمنونَ بآياتِ الله وأولئك هم الكاذِبُونَ » .

---

١ ـ سورة النحل : الآيات ١٠١ ـ ١٠٥

ثم يردهم إلى ملاحظة واضحة لو كانوا يبصرون وهي أن الذين يزعمون أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تعلم منه القرآن أعجمي اللسان والقرآن عربي فكيف يمكن ذلك ؟ !

إن شانئك هو الأبتر :

قال ابن هشام : (١) قال ابن اسحاق :

وكان العاص بن وائل السهمي إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له ولو مات لانقطع ذكره واسترحتم منه .

عن هذا المعنى يتحدث القرآن الكريم في قوله تعالى : (٢)

« إنّا أعطَيْناكَ الكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ . إنَّ شَانِئَكَ هو الأبتَرُ » .

ومع أن في هذه الآيات الكريمة ضرباً من المواساة للرسول صلى الله عليه وسلم والدفاع عنه فهي كذلك تصحح المعيار وتعطي للأبتر معنى غير المتعارف لديهم .

فليس الأبتر من انقطع عقبه وفنيت ذريته وإنما الأبتر من انقطع أمله في الآخرة لبغضه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم استجابته للحق ، فليس الذكر والصيت ولسان الصدق بكثرة الأولاد والعقب وإنما هو بالإسلام لله واتباع رسوله .

---

١ ـ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٤ وانظر سيرة ابن كثير ج ٢ ص ٨٤ ـ ٨٦

٢ ـ الكوثر : الآيات ١ ـ ٣

والعاص بن وائلٍ هذا له موقف مع الصحابي الجليل خَبّابُ ابن الأرَتّ وكان قَيْناً (حداداً) يعمل السيوف بمكة فعمل للعاص عملا حتى كان له عليه مالٌ فجعل يتقاضاه منه فقال العاص :

يا خبّاب : أليس يزعم محمدٌ صاحبكم الذي أنت على دينه أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم !

قال خباب : بلى .

قال : فأنظِرني إلى يوم القيامة يا خبّاب حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك حقك هنالك ، فو الله لا تكون أنت وصاحبك يا خبّاب آثر عند الله منّي ، ولا أعظم حظاً في ذلك . . فنزل فيه قوله تعالى :

« أفَرأيْتَ الذي كفرَ بآياتِنا وقال : لأوتيَنّ مالاً وولداً . أطّلَع الغيب أم اتّخذَ عِند الرحْمَن عهداً . كلا سنكتُب ما يقُولُ ونَمُدُّ له من العَذَابِ مداً . ونَرِثُه ما يَقُولُ ويأتِينا فَرْداً » . (١)

لولا أنزل عليه ملك :

قال ابن هشام : (٢) قال ابن إسحاق :

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه إلى الإسلام وكلمهم

---

١ ـ مريم : الآيات ٧٧ ـ ٨٠

٢ ـ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٨٣ ، ج ٢ ص ٣٦ وابن كثير ٢/٨٥

فأبْلَغَ إليهم فقال له نفر منهم (ذكر أسماءهم) يا محمد : لو جُعل معك مَلَكٌ يحدث عنك الناس ويرى معك ؟ !

في هذا يقول القرآن الكريم :

« وقَالُوا لَوْلاَ أُنزِلَ علَيه مَلَكٌ ، ولَوْ أنزلْنا ملكاً لقُضِي الأمرُ ثمَّ لا يُنْظَرُونَ . ولَوْ جَعَلْنا هُ ملَكاً لَجعلْناهُ رجلاً ولَلَبَسْنا علَيهم مَا يلْبِسُونَ (١) » .

ويقول :

« قلْ لَوْ كَانَ في الأرضِ ملائِكةٌ يمشُونَ مطْمَئنين لنزّلْنا علَيهم منَ السّماء ملَكاً رَسُولاً » (٢) .

ومن الواضح أن مراد القرآن هو إشعار هؤلاء الناس باستحالة إنزال الملك لمصاحبة الرسول صلى الله عليه وسلم لسببين :

الأول : أنه لو أنزل فسينزل على صورة بشرية وعندئذ يبقى الالتباس ولا يكون ثمة فائدة من نزوله .

الثاني : أنه لو كان أهل الأرض ملائكة لأرسل الملك إليهم ، وما داموا بشراً فرسول الله إليهم هو سيد البشر صلوات الله عليه .

---

١ ــ الانعام : الآية ٩

٢ ــ الاسراء : الآية ٩٥

ولقد استهزيءُ برسل من قبلك :

قال ابن هشام : (١) قال ابن اسحاق :

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفر من قريش –سماهم– فهمزوه واستهزءوا به فغاظه ذلك ، فأنزل الله تعالى قوله : (٢)

« ولَقَدْ اسْتُهْزِيءَ برُسُلٍ من قَبْلِكَ فَحاقَ بالّذِينَ سَخِرُوا مِنْهم مّا كانُوا بِهِ يَسْتَهزِئُونَ » .

وثمة آيات كثيرة جاءت في كتاب الله تعالج هذا الموضوع . . موضوع المستهزئين بالرسول صلى الله عليه وسلم وبرسالته . . وهي في جملتها تدور في محورين :

(أ) المحور الذي عبّرت عنه الآية السابقة ، وهو إعلان سوء المنقلب وبئس المصير لكل من آذوا رسل الله من قبل ومن يؤذون رسولنا صلوات الله عليه ، وذلك مثل قوله تعالى : (٣)

« ولقد اسْتُهزِيءُ برسُلٍ من قبلك فحَاقَ بالّذِينَ سخروا منهم مّا كانوا به يَستهزِئون » .

وقوله تعالى :

« فإن كذّبوكَ فقلْ ربّكم ذو رَحمةٍ وَاسعةٍ ولاَ يُرَدُّ بأسُهُ عن القَوْمِ المجْرِمينَ » (٤) .

---

١ ـ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٧ وابن كثير ٢/٨٥
٢ ـ ٣ ـ الانعام : الآية ١٠ ٤ ـ الانعام : الآية ١٤٧

وقوله تعالى :

« وإنْ كذَّبوكَ فقُلْ لي عَمَلِي ولكُمْ عَملُكُم ، أنتُم بَريئونَ مِمّا أعْملُ وأنا بريءٌ مما تعْملُونَ » . (١)

وقوله تعالى :

« ولقد استُهْزِيءَ برسُلٍ من قبلِكَ فأمليْتُ للّذِينَ كفرُوا ثم أخذتهم فكَيْفَ كان عِقَابِ » . (٢)

وقوله تعالى :

« وإنْ يكذِّبُوكَ فقدْ كذَّبتْ قبلهُمْ قوْمُ نُوحٍ وعَادٌ وثَمودُ . وقَوْمُ إبراهيمَ وقومُ لُوطٍ . وأصْحابُ مدْيَنَ وكُذِّبَ مُوسَى فأمْلَيْتُ للكافِرينَ ثم أخذتهم فكيفَ كانَ نَكير . فكأيِّنْ مِن قَرْيةٍ أهْلَكْنَاهاوهِي ظالِمةٌ فَهِيَ خاوِيةٌ على عُروشِها وبِئْرٍ معَطّلَةٍ وقَصْرٍ مَشيدٍ » . (٣)

وقوله تعالي :

« وإنْ يُكذِّبُوكَ فقد كَذّبَ الّذِينَ من قَبْلهمْ جاءتهُم رسُلُهم بالبيّنَات وَبالزُّبُر وبالكِتابِ المنيرِ . ثُم أخَذْتُ الّذينَ كفَرُوا فكيفَ كانَ نَكيرِ » . (٤)

* * *

---

١ ـ يونس : الآية ٤١
٢ ـ الرعد : الآية ٣٢
٣ ـ سورة الحج : الآيات ٤٢ ـ ٤٥
٤ ـ فاطر : الآيتان ٢٥ ـ ٢٦

أما النوع الثاني من الآيات التي تحدثت عن المكذبين والمستهزئين فقد اتجهت إلى التهوين على الرسول صلى الله عليه وسلم ومواساته والربط على قلبه وذلك بالإشارة إلى من سبق أن كُذبوا من الأنبياء والرسل وذلك من مثل قوله تعالى :

« فإن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رسلٌ من قَبْلِكَ جاءوا بالبيّنات والزُّبُرِ والكتَابِ المُنيرِ » . (١)

وقوله تعالى :

« قدْ نَعْلَمُ إنّهُ لَيَحزُنُكَ الّذي يَقُولُونَ فإنّهم لا يُكَذّبونَكَ ولكِنّ الظالمين بآياتِ الله يَجْحَدُونَ . ولقد كُذِّبَتْ رُسُلٌ من قَبْلِكَ فَصَبَرُوا على ما كُذّبوا وأوذوا حتّى أتاهُمْ نَصْرُنا ولاَ مُبَدِّلَ لكَلِماتِ اللهِ ولَقَدْ جاءكَ من نَبَأِ المُرْسَلينَ . وإنْ كانَ كَبُرَ عَليكَ إعْراضُهم فإنْ استَطَعْتَ أنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً في الأرْضِ أوْ سُلّماً في السّماء فتأتِيَهُمْ بآيةٍ ولو شاءَ الله لَجَمَعَهم على الهُدَى فلا تكونَنّ من الجاهِلينَ » . (٢)

وقوله تعالى :

« فاصْدَعْ بمَا تُؤْمَرُ وأعْرِضْ عَنِ المشْرِكينَ . إنّا

---

١ ـ آل عمران : الاية ١٨٤

٢ ـ الانعام : الايات ٣٣ ـ ٣٤ ـ ٣٥

كَفَيْناكَ المُسْتَهزِئينَ . الذينَ يَجْعَلونَ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ فسَوْفَ يَعْلَمُونَ . ولقدْ نَعلمُ أنّكَ يَضيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقولونَ . فَسبِّح بحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ من السّاجِدينَ . واعْبُدْ ربّكَ حتّى يأتيكَ اليقِينُ » . (١)

وقوله تعالى :

« وإنْ يكذِّبوكَ فقد كُذِّبَتْ رُسلٌ من قَبْلِكَ وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأمُورُ » . (٢)

أجعل الآلهة إلهاً واحداً :

قال ابن هشام : (٣) قال ابن إسحاق :

لما ثقل المرض بأبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم مشى إليه أشراف قومه ليكلموه في أمر النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم :

« كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم » .

فقال له أبو جهل . . نعم وأبيك وعشر كلمات .

قال : تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه .

---

١ ــ الحجر : الآيات ٩٤ ــ ٩٩

٢ ــ سورة فاطر : الآية ٤

٢ ــ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٥٨ ــ ٦٠

قال : فصفقوا بأيديهم ثم قالوا : أتريد يا محمد أن تجعل لهم الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن أمرك لعجب .

عن هذا الموقف يتحدث القرآن الكريم منكراً على الكافرين ما هم فيه منذراً لهم بسوء المنقلب وعقبى نظرائهم من المكذبين السابقين وذلك في قوله تعالى : (١)

« صَ والقرآنِ ذِي الذِّكْرِ . بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا في عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ . كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ . وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُم مُنْذِرٌ مِنْهُم وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُم أَنْ امْشُوا واصْبِرُوا على آلِهَتِكُم إِنَّ هَذا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا في المِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ . أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ، بَلْ هُمْ في شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ » .

وفي مواطن أخرى من القرآن يتكرر الحديث عن النموذج نفسه نموذج الضالين المكذبين الذين يظنون أن استمساكهم بآلهتهم هو الحق ، غافلين عما ينتظرهم من سوء المصير في مثل قوله تعالى : (٢)

---

١ ـ ص : الآيات ١ ـ ٨

٢ ـ الفرقان : الآيتان ٤١ ـ ٤٢

« وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رسولاً . إِنْ كادَ لَيُضِلّنا عن آلِهَتِنَا لولاَ أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها وسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً » .

ومثله قوله تعالي : (١)

« إنّهم كانوا إذا قيلَ لهم لا إله إلا اللهُ يستكبرون . ويقُولون أَئِنَّا لتَارِكُوا آلِهتِنا لِشَاعِرٍ مجْنون » .

وقوله تعالى : (٢)

« ولَمّا ضُرِبَ ابنُ مَريمَ مثلاً إذا قَوْمُكَ مِنه يَصِدُّونَ . وقالُوا أآلهتُنا خيرٌ أم هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إلاّ جدَلاً بلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ » .

حديث الإسراء والمعراج :

روى البخاري (٣) قال :

حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن سمعت جابر بن عبد الله رضي

١ ـ الصافات : الآيتان ٣٥ ـ ٣٦
٢ ـ الزخرف : الآيتان ٥٨ ـ ٥٩
٣ ـ البخارى ج ٢ ص ٢٢٦

الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

لما كذبني قريش قمتُ في الحجر فجلا الله لي بيت المقدس فطفِقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه » .

* * *

وقال ابن هشام : (١)

حدثنا زياد بن عبد الله البكائيّ عن محمد بن اسحاق المطّلبي قال :

« ثم أُسري برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وهو بيت المقدس من « إيلياء »(٢) وقد فشا الإسلام بمكة في قريش وفي القبائل كلها .

* * *

وقال ابن اسحاق : (٣)

وحُدّثت عن الحسن – يعني البصري – أنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينما أنَا نائمٌ في الحجر إذ جاءني جبريلُ فَهَمَزني بقدمه فجلستُ فلم أَرَ شيئاً ،

١ – سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٦ – ٤٤ ومثله فى سيرة ابن كثير ج ٢ ص ٩٣ وما بعدها

٢ – ايليا ، بكسر أوله واللام والف ممدودة بعد الياء : مدينة بيت المقدس (القدس)

٣ – سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٨

فعدتُ إلى مضجعي ، فجاءني الثانية فهمزني بقدمه ، فجلست فلم أر شيئاً فعدتُ إلى مضجعي ، فجاءني الثالثة فهمزني بقدمه فجلست فأخذ بعضدي ، فقمتُ فخرجتُ معه فخرج بي إلى باب المسجد فإذا دابةٌ أبيض بين البغل والحمار في فخذيه جناحان يَحْفِزُ(١) بهما رجليه، يضع يديه في منتهى طرفه، فحملني عليه ، ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته .

قال ابن اسحاق : قال الحسن : (٢)

فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومضى جبريل عليه السلام معه حتّى انتهى به إلى بيت المقدس فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء فأمّهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بهم ، ثم أُتِيَ بإناءين في أحدهما خمرٌ ، و في الآخر لبنٌ . قال : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إناء اللبن فشرب منه وترك إناء الخمر .

قال : فقال له جبريل ، عليه السلام ، هديتَ للفطرة وهديت أمتك يا محمد وحرّمت عليكم الخمر ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة .

فلما أصبح غدَا على قريش فأخبرهم الخبر ، فقال أكثر

---

١ ـ يدفع بهما .

٢ ـ ابن هشام ج ٢ ص ٣٩

الناس : هذا والله الإمر البيّن (١) والله إن العير لتُطْرَدُ شهراً من مكة إلى الشام مدبرةً وشهراً مقبلة . أفيذهب ذلك محمدٌ في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟ ! !

قال : فارتدّ كثير ممّن كان أسلم .

وذهب الناس إلى أبي بكر – رضي الله عنه – فقالوا له : هل لك يا أبا بكر في صاحبك ؟ ! يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة .

قال : فقال لهم أبو بكر – رضي الله عنه – إنكم تكذبون عليه . فقالوا : بلى ها هو ذاك في المسجد يحدّث به الناس .

فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله إنه ليخبرني أن الخبر يأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهارٍ فأصدّقه فهذا أبعد مما تعجبون منه .

ثم أقبل – رضي الله عنه – حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

يا نبي الله : أحدّثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال : نعم .

قال : يا نبي الله فصفه لي فإني قد جئته .

قال الحسن – فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فرُفعَ

١ – الامر بكسر الهمزة : المنكر العجيب

لي حتّى نظرتُ إليه . فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه لأبي بكر ويقول أبو بكر : صدقت . . أشهد أنك رسول الله . . وكلما وصف له منه شيئاً قال صدقت أشهد أنك رسول الله .

حتّى إذا انتهى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر ، وأنت يا أبا بكر الصِّدّيقُ . فيومئذ سماه الصديق .

قال ابن هشام : (١) قال ابن اسحاق :

وكان فيما بلغني عن أم هانيء بنت أبي طالب رضي الله عنها واسمها هند – في مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهـا كانت تقول :

« ما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو في بيتي ، نام عندي تلك الليلة في بيتي ، فصلى العشاء الآخرة ، ثم نام ونمنـا .

فلما كان قبيل الفجر أهبّنا (٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما صلى الصبح وصلّينا معه قال :

يا أمّ هانيء ، لقد صلّيت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ، ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين ، ثم قام ليخرج ، فأخذت

---

١ – سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٣ وانظر مثله فى سيرة ابن كثير ج ٢ ص ٩٣ – ١٢١

٢ – أيقظنا

بطرف ردائه ، فتكشف عن بطنه كأنه قبطية (١) مطوية ، فقلت له :

يا نبيّ الله ، لا تحدث بهذا الناس فيكذبوك ويؤذوك ، قال : والله لأحدّثنهموه . .

قالت : فقلت لجارية حبشية لي : ويحك ، اتبعي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تسمعي ما يقول للناس وما يقولون له .

فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس أخبرهم فتعجبوا وقالوا : ما آية ذلك يا محمد ؟ فإنا لم نسمع بمثل هذا قط ؟

قال : آية ذلك أني مررت بعير بني فلان بوادي كذا وكذا فأنفرهم حس الدّابّة فندّ لهم بعير فدللتهم عليه وأنا موجّه إلى الشام . ثم أقبلتُ حتى إذا كنتُ بضجنان (٢) مررتُ بعير بني فلان فوجدت القوم نياماً ، ولهم إناء قد غطّوا عليه بشيء ، فكشفت غطاءه وشربتُ ما فيه ، ثم غطيتُ عليه كما كان ؛ وآية ذلك أن عيرهم الآن تصوب(٣) من البيضاء(٤) . ثنية التّنعيم يقدمها جمل أورق (٥) عليه غرارتان إحداهما سوداء والأخرى برقاء (٦) .

---

١ ـ القبطية بضم القاف وكسرها : ثياب من كتان تنسج بمصر
٢ ـ جبل قريب من مكة
٣ ـ تنزل من عل
٤ ـ اسم مكان
٥ ـ لونه بين المغبرة والسواد
٦ ـ مختلفة الالوان

قالت : فابتدر القوم الثنية فلم يلقهم أوّلُ من الجمل كما وصف لهم ، وسألوهم عن الإناء فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءاً ماء ثم غطوه ، وأنهم هبُّوا فوجدوه مغطى كما غطّوه ، ولم يجدوا فيه ماء ، وسألوا الآخرين وهم بمكة فقالوا : صدق والله ؛ لقد أنفِرنا في الوادي الذي ذكر ، وندّ لنا بعيرٌ فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه » .

* * *

قال ابن هشام : (١) قال ابن اسحاق :

وحدثني بعض آل أبي بكر ، أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم كانت تقول : « ما فُقِد جَسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله أسرى بروحه » .

ونقل ابن اسحاق كذلك رواية تنسب إلى معاوية بن أبي سفيان قال عن الإسراء إنه كان « رؤيا من الله تعالى صادقة » .

وثمة كلام كثير في الموضوع جعل ابن اسحاق يقول (٢) :

« وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم – فيما بلغني – يقول: « تنام عيناي وقلبي يقظان » .

ثم يعلق على ما روى في حادث الإسراء بقوله : « والله أعلم أي ذلك كان ؛ قد جاءه وعاين فيه ما عاين من أمر الله على أيّ

١ – السيرة لابن هشام ج ٢ ص ٤٠
٢ – المصدر السابق ص ٤١

حاليه كان نائماً أو يقظان ؛ كل ذلك حقٌ وصدق » .

* * *

أما حديث الإسراء في القرآن الكريم فقد جاء في قوله تعالى (١) :

« **سُبْحانَ الّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيلاً من الْمَسْجِدِ الْحرامِ إلى المسْجِدِ الأقْصَى الّذِي بَارَكْنَا حوْلَه لِنُرِيَهُ من آياتِنَا إنّه هوَ السّمِيعُ الْبَصِيرُ** » .

وكذا قوله تعالى : (٢)

« **وَإِذْ قُلْنا لَكَ إنَّ ربّكَ أَحَاطَ بالنّاسِ وما جَعَلْنا الرُّؤْيا الّتي أَرَيْنَاكَ إلا فتنةً للنّاسِ ، والشّجَرةَ الملْعُونَةَ في الْقُرآنِ . . الآية . .** »

وذلك على ما روي عن الحسن البصري رضي الله عنه من قوله (٣)

وأنزل الله تعالى فيمن ارتدّ عن إسلامه لذلك قوله تعالى : « **وما جعلنا الرؤيا التي أريناك** . . الآية . . » .

ويذهب آخرون إلى أن الآية الأخيرة مقصودٌ بها ما رآه الرسول صلى الله عليه وسلم عندما عُرج به إلى السموات العلى ..

ومهما تكن الآراء فما ورد في القرآن الكريم عن الإسراء

---

١ ـ الاسراء : الآية ١   ٢ ـ الاسراء : الآية ٦٠

٣ ـ السيرة لابن هشام ج ٢ ص ٤٠

يعتبر قليلا بالنسبة لحجم الحدث وما أثار من أحاديث . . وذلك من خصائص البيان القرآني التي أشرنا إليها في مقدمة هذا البحث وقلنا إن عرض السيرة في القرآن يختلف عنه في كتب السيرة ، وأن البيان القرآني للأحداث يختلف إيجازاً وإطناباً ليس بحسَب حجم الحدث من المنظور البشري ولكن بحسب ما تقتضيه الحكمة الربانية .

فربما كان الإيجاز هنا مقصوداً لذاته لابتلاء صدق الإيمان من زيفه لدى أتباع الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، بدليل أن بعض من كانوا على الإسلام لما سمعوا بحديث الإسراء والمعراج ارتدوا عن الإسلام . . وهذا ما جعل بعض المفسرين ــ كما أشرنا ــ يذهب إلى أن آية « . . . **وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس** . . . » تشير إلى الإسراء ونزلت فيه وأنها نبوءة وتقرير لما حدث بالفعل من بعض من افتتنوا من المسلمين .

وربما كانت لله تبارك وتعالى في ذلك حكمة لا نستطيع إدراكها لكن هكذا جاءت أحداث السيرة في البيان القرآني دافعة إلى التفكير والتأمل في كل حال .

الجن يستمعون القرآن :

وقبل أن نسجل ما جاء في السيرة وما جاء في القرآن الكريم عن « الجن » نود التنبيه إلى ما سيلحظه القارئ الكريم من أن البيان القرآني قد أفاض في حديث الجن وعرض لذكرهم مرتين :

مرة في سورة الأحقاف ومرة في السورة التي تحمل اسمهم في القرآن الكريم . .

والسورتان معاً تؤكدان أن الله تبارك وتعالى قد صرف نفراً من الجن إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يستمعون القرآن منه . فلما استمعوا إلى القرآن أُعجبوا به واستجابوا له ، وهداهم الله تبارك وتعالى إلى الإسلام ، ثم عادوا إلى قومهم لينذروهم وليدعوهم إلى ما استمعوا إليه . .

ولقد أعطت الآيات الواردة عن « الجن » في القرآن تفصيلات كثيرة عنهم ـ لا من ناحية تكوينهم وخصائصهم ولكن من ناحية أثر القرآن فيهم ودخول بعضهم في الإسلام وإعراض بعضهم عنه وهو ما لا يمكن الوقوف عليه بحالٍ إلا بإخبار صادق من كتاب الله .

كما تحدثت الآيات كذلك عن حراسة السماء من الجن وكانوا من قبل يستّمعون إلى بعض ما يدور بين ملائكة الله في الملأ الأعلى ، فلما أطلّت البعثة المحمدية حرست السماء بالشهب على ما جاء في سورة الجن وسورة الصافات وحيل بينهم وبين السماء :

« إلاَّ مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فأتبَعَهُ شِهَابٌ ثاقبٌ » (١) .

ولقد يرد في الخاطر مثل هذا التساؤل : لماذا أعطى القرآن

١ ـ الصافات : الآية ١٠

تفصيلات في أمر « الجن » بينما أوجز في الحديث عن الإسراء والمعراج مع أنهما مغيّبان على الناس كذلك ؟

وأقول : إن هذه بعض خصائص البيان القرآني في عرضه للسيرة النبوية كما أشرت في مقدمة هذا البحث ، وبوسعنا أن نجتهد في التعليل بَيْدَ أن الحق أن هذا بعض حكمة الله تبارك وتعالى التي تعجز عن إدراكها العقول .

وإليكم ما جاء في السيرة وفي القرآن عن استماع الجن للقرآن :

روى البخاري(١) بسنده إلى معن بن عبد الرحمن قال : سمعت أبي قال : سألت مسروقاً : من آذن النبي صلى الله عليه وسلم بالجن ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : آذنت بهم شجرة . .

وروى البخاري بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يحمل مع النبي صلى الله عليه وسلم إداوة(٢) لوضوئه، وحاجته .

فبينما هو يتبعه بها فقال – يعني الرسول صلى الله عليه وسلم – من هذا ؟ فقال: أنا أبو هريرة . فقال: أبْغِني أحجاراً أستَنْفِض بها (٣) ولا تأتني بعظم ولا بروثة .

---

١ – صحيح البخارى ج ٢ ص ٣٢٢ باب ذكر الجن وقول الله تعالى: قل أوحى الى انه استمع نفر من الجن .

٢ – الاداوة .

٣ – استنفض

فأتيته بأحجار أحملها في طرف ثوبي حتى وضعتها إلى جنبه ، ثم انصرفت .

حتى إذا فرغ مشيت فقلت : ما بال العظم والروثة ؟

قال: هما من طعام الجن ، وإنه وفد جنّ نصيبين ، ونعم الجن فسألوني الزاد فدعوت الله لهم أن لا يمرّوا بعظمة ولا بروثة إلا وجدوا عليها طعاماً » .

وروى ابن هشام : (١) قال ابنُ إسحاق :

« ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يئس من خبر ثقيف ، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي فمر به نفر من الجن . . فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين ، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا .

عن هذا يتحدث القرآن الكريم في قوله تعالى : (٢)

« قُلْ أُوحِيَ إليَّ أنّه استَمَعَ نفَرٌ من الجِنّ فقَالُوا : إنّا سمِعْنَا قرآناً عجباً . يَهْدِي إلَى الرُّشْدِ فآمنّا بِهِ ولَنْ نُشرِكَ بربِّنَا أحدًا . وأنّه تعَالى جَدُّ رَبِّنا ما اتّخَذَ صَاحِبَةً

١ ـ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦٣ وانظر سيرة ابن كثير ج ٢ ص ١٥٣ وانظر تفسير ابن كثير لسورة الجن ج ٤

٢ ـ سورة الجن : الآيات ١ ـ ١٤

ولاَ وَلدًا . وأنّه كانَ يقُولُ سفيهُنَا علَى اللهِ شَططَا . وأنّا ظننا أن لنْ تقولَ الإنس والجنُّ على الله كذبا . وأنه كان رجال من الإنسِ يعُوذُونَ برجالٍ من الجنِّ فزادوهُمْ رَهَقاً . وأنّهم ظنُّوا كما ظننتُم أن لنْ يبعثَ الله أحداً . وأنا لمسْنا السماء فوَجدْناهَا مُلِئَتْ حرساً شديداً وشهباً . وأنّا كنّا نقعدُ منها مقاعِدَ لِلسّمع فمنْ يَستمع الآنَ يجدْ له شهاباً رصداً . وأنّا لا ندْري أشرٌّ أريدَ بمن في الأرضِ أمْ أرَاد بهم ربُّهم رشداً . وأنا منّا الصّالحونَ وَمِنّا دُونَ ذلك كنا طرَائِقَ قِدداً . وأنّا ظننّا أنْ لنْ نُعجزَ الله في الأرْضِ ولنْ نعجزه هرباً . وأنّا لما سَمِعْنَا الهُدى آمنّا به فَمنْ يؤمنْ بربّه فلا يخافُ بخساً ولا رهقاً . وأنّا مِنّا المسْلمونَ ومنا القاسِطُونَ فمن أسْلَم فَأولئكَ تحرَّوْا رشداً » .

وقوله تعالى : (١)

« وإذْ صرَفْنا إليْكَ نفراً مِنَ الجِنِّ يستمعُونَ الْقرآنَ فلما حَضَرُوه قَالُوا : أنْصِتُوا فلمّا قُضِيَ ولّوْا إلَى قَوْمِهِم مُنْذِرينَ . قَالُوا يا قَومنَا إنّا سمِعْنَا كِتاباً أنزِلَ منْ بعد موسَى يهْدي إلى الحقِّ وإلَى صِرَاطٍ مُستقيم . يا قوْمنَا أجيبُوا

١ ــ سورة الاحقاف : الآيات ٢٩ ــ ٣٢

دَاعِيَ الله وآمنوا برسولِهِ يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عَذَابٍ أليم . ومَنْ لا يجِبْ داعي الله فليس بمعجز في الأرضِ وليس له من دُونه أولياءُ أولئكَ في ضلالٍ مبين » .

بيعة النساء : (١)

ونقل ابن كثير في تفسيره (٢) ما رواه الإمام البخاري عن عروة أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه « **يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك** » .

قال عروة : قالت عائشة : فمن أقرّ بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد بايعتك ــ كلاماً ــ ؛ ولا والله ما مست يده يد امرأة في المبايعة قط ، ما يبايعهن إلا بقوله: « قد بايعتك على ذلك » . هذا لفظ البخاري . .

وروى الإمام أحمد عن أمية بنت رقيقة (٣) قالت :

أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نساء لنبايعه ، فأخذ علينا ما في القرآن « أن لا نشرك بالله شيئاً » الآية ؛ وقال : « فيما استطعتُنّ وأطعتُنّ » قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من

---

١ ــ ابن هشام ج ٢ ص ٧٥ وانظر دلائل النبوة للبيهقي ج ٢ ص١٧٦

٢ ــ مختصر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٨٧

٣ ــ أخت السيدة خديجة عن المصدر السابق هامش رقم ٢

أنفسنا ؛ وقلنا يا رسول الله : ألا تصافِحُنا ؟ قال : إني لا أصافح النساء ؛ إنما قولي لامرأة واحدة قولي لمائة امرأة (١) .

وعن سلمى بنت قيس – وكانت إحدى خالات رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صلّت معه القبلتين قالت : ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفترّيه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف ، قال : « ولا تغششن أزواجكن » .

قالت : فبايعناه ثم انصرفنا فقلت لامرأة منهُنّ : ارجعي فسلي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما غش أزواجنا ؟ فسألته فقال : « تأخذ ماله فتحابي به غيره » .

وقال الإمام أحمد ، عن عائشة بنت قدامة – يعني ابن مظعون – قالت : قال : ولا تسرقن ولا تزنين ولا تقتلن أولادكن ولا تأتين ببهتان تفترّينه بين أيديكن وأرجلكن ، ولا تعصينني في معروف – قلن نعم – فيما استطعن – قالت : فكن يقُلن وأقول معهن ، وأمي تقول لي : أي بنية نعم ، فكنت أقول كما يقلن .

وقال البخاري : عن أم عطية قالت :

بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ علينا « ولاتشركن بالله شيئاً » ونهانا عن النياحة ، فقبضت امرأة يدها قالت : أسعدتني فلانة ، فأريد أن أجزيها ، فما قال لها رسول الله صلى الله عليه

١ – اخرجه احمد والترمذى والنسائى

وسلم شيئاً ، فانطلقت ورجعت فبايعها ، وفي رواية فما وفى منهن امرأة غيرها وغير أم سليم ابنة ملحان » .

ونقل ابن كثير (١) عن الإمام البخاري ما رواه عن ابن عباس رضي الله عنه قال :

شهدتُ الصلاة يوم الفطر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان ؛ فكلهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب بعدها ؛ فنزل نبي الله صلى الله عليه وسلم فكأني أنظر إليه حين يُجْلِسُ الرجال بيده ؛ ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال :

« **يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك . . .** » حتى فرغ من الآية كلها ثم قال حين فرغ : « أنتن على ذلك ؟ » فقالت امرأة واحدة ولم يجب غيرها نعم يا رسول الله ، لا يُدرى من هي ؟ قال : فتَصَدّقن : قال : وبسط بلالٌ ثوبه فجعلن يلقين الفتخ والخواتيم في ثوب بلال » .

وروى ابن جرير عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عمر بن الخطاب فقال : قل لهن إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايعكن على ألا تشركن بالله شيئاً . .

قال : وكانت هند بنت عتبة التي شقت بطن حمزة متنكرة في النساء فقالت :

---

١ ـ مختصر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٨٨

كيف تقبل من النساء شيئاً لم تقبله من الرجال ؟

فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لعمر « قل لهن ولا يسرقن » .

قالت هند : والله إني لأصيب من أبي سفيان الهنات ما أدري أيحلهنّ لي أم لا ؟ .

فقال أبو سفيان : ما أصبت من شيء مضى أو قد بقي فهو لك حلالٌ ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفها .

فقال « ولا يزنين » فقالت هند : يا رسول الله : وهل تزني امرأة حرة ؟ !

قال : والله ما تزني امرأة حرة . قال : « ولا يقتلن أولادهن » قالت هند : أنت قتلتهم يوم بدر فأنت وهم أبصر . إلى آخر ما جاء في روايته .

* * *

هذا ما جاء في كتب السيرة عن بيعة النساء . وهو كما ترى كثير وحافل بالتفصيلات .

أما القرآن الكريم في تناوله لهذا الحديث فقد لخصه في قوله تعالى : (١)

« يا أَيُّها النَّبيّ إذَا جَاءكَ المؤْمِنَاتُ يُبَايِعنَك على ألا

---

١ ـ الممتحنة : الآية ١٢

يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يَزْنِينَ ولا يقتلن أولادهن ولا يأتينَ ببُهْتانٍ يَفْتَرينَه بيْنَ أيْديهنَّ وأرْجُلهِنَّ ولا يَعْصِينَكَ في مَعْروفٍ فبايعْهُنَّ واسْتَغْفِرْ لَهنَّ اللهَ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ » .

ويلاحظ أن البيان القرآني لخّص الأسس التي تمُّ عليها بيعة النساء لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهي المطلوب فقط منهن لأن ما وراء ذلك لا حاجة إليه . . وتلك بلاغة القرآن .

العَهْدُ المَكّيُّ

الإذن بالقتال :

قال ابن هشام : قال محمد بن اسحاق المطلبيّ(١) :

«كان رسول الله صلى الله عليه وسلم – قبل بيعة العقبة الأولى – لم يؤذن له في الحرب ولم تحل له الدماء ، إنما يؤمر بالدعاء والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل ، وكانت قريش قد اضطهدت من اتّبعه من المهاجرين حتّى فتنوهم عن دينهم ، فهم من بين مفتون في دينه ومعذب في أيديهم وبين هارب في البلاد فراراً منهم ، منهم من بأرض الحبشة ، ومنهم من بالمدينة ، وفي كل وجه فلما عتت (٢) قريش على الله عز وجل وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة وكذبوا نبيه صلى الله عليه وسلم . . أذن الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم في القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغي عليهم .

عن هذا يتحدث القرآن الكريم في قوله تعالى : (٣)

---

١ – السيرة لابن هشام ج ٢ ص ١١٠ – ١١١

٢ – خالفت أمره وعصته

٣ – الحج : الآيات ٣٩–٤١

« أذِنَ للّذِينَ يُقاتَلون بأنّهم ظُلِموا وإنَّ اللهَ على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الّذِينَ أُخْرِجوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إلاّ أنْ يقولوا ربُّنا اللهُ ، ولَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النّاسَ بعْضَهُم بِبعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وبيعٌ وصَلَوَاتٌ وَمَساجِدُ يُذْكرُ فيهَا اسمُ الله كَثيراً وَلَيَنْصُرنَّ اللهُ مَنْ ينصُرُهُ إنَّ الله لَقَوِيٌّ عزيزٌ . الّذِينَ إنْ مَكّنّاهُمْ في الأرْضِ أقامُوا الصَّلاَةَ وآتُوا الزَّكاةَ وأمرُوا بالمعْرُوفِ ونَهَوْا عَنِ المنْكَرِ ولله عاقِبَةُ الأمُور » .

وقوله تعالى : (١)

« وَقاتِلوهُمْ حَتّى لاَ تَكونَ فِتْنَةٌ ويَكونَ الدِّينُ كُلُّه للهِ » .

ولعل من الجدير بالملاحظة أن البيان القرآني عندما تحدث عن الإذن بالقتال للرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه قد أوضح دوافع هذا الإذن ، وأنها لدفع الظلم عن أولئك المقهورين ، الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . وهذا لون جديد في بيان حكمة مشروعية القتال

١ ـ الانفال : الآية ٣٩

دفاعاً عن العقيدة المضطهدة والتي حال المشركون بين المسلمين وبين ممارستها في ديارهم .

فليس القتال طمعاً في أرض الآخرين و لا عدواناً عليهم و لكنه فقط لمجرد الوصول إلى حرية العبادة والتمكن من ممارسة الدين الذي ارتضوه لأنفسهم وارتضاه لهم الله . .

وفي الآيات كذلك بيان وتوضيح لأهداف هذه الأمة الناهضة التي أُذن لها بالقتال لتصل بنفسها وبالآخرين إلى مجتمع كريم يُخافُ فيه الله ويعبد وحده بلا شريك ويُخَلّى بين الناس وبين الخير يعيشونه فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون المجتمع الكريم الذي لا طغيان فيه ولا طواغيت .

* * *

وجدير بالملاحظة كذلك أن هذه الآيات جاءت في مناخ شديد الملاءمة من الآيات الأخرى التي سبقتها وأعقبتها . .

فقبلها جاء قوله تعالى « **إن الله يدافع عن الذين آمنوا ، إن الله لا يحب كل خوّان كفور** » (١)

وهو بيان وإعلان للمشركين والطغاة أن هذه القوة الجديدة

---

١ ـ الحج : الاية ٣٨

التي ستعطي الإذن بالقتال قد كُفِلَتْ لها الحماية الإلهية ، لأنها جماعة حق وخير . . وما دامت كذلك تنتصر لما أمرها به الله فهي منصورة أبداً بأمر الله . « **ولينصرن الله من ينصره** » . (١)

وتأتي بعدها آيات تتحدث في تهديد ووعيد عن أصناف من السابقين كذبوا رسلهم واعترضوا بالباطل طريق الحق فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر وذلك في قوله تعالى :

« وإنْ يكذِّبُوكَ فقدْ كذَّبت قبلَهم قومُ نوحٍ وعادُ وثمودُ . وقومُ إبراهيمَ وقومُ لُوطٍ ، وأصحابُ مَدْيَنَ وكُذِّبَ مُوسَى فَأمليْتُ للكافِرينَ ثمَّ أخذتُهُم فكيف كانَ نكير . فكَأيِّن مِنْ قَريةٍ أهلَكناهَا وهي ظالِمةٌ فهي خاويةٌ علَى عُروشِها وبئرٍ مُعَطّلَةٍ وقَصْرٍ مَشيدٍ » . (٢)

* * *

أما الآية الثانية « **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** » . فقد سُبقت هي الأخرى بإنذار مماثل للكافرين بأن يُخلّوا ما بين الناس وبين دعوة الحق ، وإلا فمصيرهم مصير سابقيهم من المستكبرين والطغاة وذلك في قوله تعالى (٣) :

---

١ ـ الحج : الآية ٤٠
٢ ـ الحج : الآية ٤٢ ـ ٤٥
٣ ـ الانفال : الآية ٣٨

« قلْ للّذِينَ كفَرُوا إنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهم مَا قَدْ سَلَفَ وإنْ يَعودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنّةُ الأوّلِينَ » .

ثم أُتْبِعت في ختام الآية نفسها والآية بعدها بما يؤكد حتمية اندثار الباطل أمام صولة الحق المؤيدة بنصر من الله لأوليائه المؤمنين ، وذلك في قوله تعالى : (١)

« . . . فإنْ انْتهوْا فإنّ الله بما يَعْمَلونَ بَصِيرٌ . وإن تولّوْا فاعْلَموا أنّ الله مَوْلاكُم نِعْمَ المولى ونعْم النّصيرْ » .

وهكذا يعرض البيان القرآني الأحداث في توجيه وإيحاء يقصر دونه كل ما جاء في كتب السيرة ، وتلك بلاغة القرآن .

* * *

وتصديقاً لوعد الحق تبارك وتعالى ونصرةً من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ، فقد أتاه جبريل عليه السلام فقال : (٢)

لا تبت الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه .

قال : فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه ؛ فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

١ ـ الانفال : الايتان ٣٩ ـ ٤٠

٢ ـ ابن هشام ج ٢ ص ١٢٦ ـ ١٢٧

مكانهم قال لعلي بن أبي طالب : نمْ على فراشي وتَسَبَّح (١) ببردي . فإنه لن يخلص إليك شيءٌ تكرهه منهم . .

قال ابن اسحاق ؛ فحدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي :

« وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ حفنة من تراب في يده — وأخذ الله على أبصارهم فلا يرونه — فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات من سورة يس . من أولها إلى قوله تعالى : « **فأغشيناهم فهم لا يبصرون** »(٢) حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الآيات ولم يبق منهم رجل الا وقد وضع على رأسه تراباً ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب .

قال : فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون ههنا ؟ قالوا : محمداً ، قال : خيبكم الله ؛ قد والله خرج عليكم محمد وما ترك منكم رجلا إلا وضع على رأسه تراباً ثم انطلق لحاجة . .

وكانت هذه الليلة نهاية العهد المكي من الرسالة المحمدية وبداية العهد المدني الجديد الذي تكوّنت فيه دولة الإسلام في المدينة وكان لها مع التاريخ شأن أي شأن .

---

١ — تسجى : غطى وجهه وجسده
٢ — سورة يس : الآية ٩

المؤامرة لقتل الرّسول :

قال ابن هشام : (١) قال ابنُ إسحاق :

« ولما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم . . عرفوا أنه قد أجمعَ لحربهم . . فاجتمعوا له في دار الندوة يتشاورون فيما يصنعون في أمره صلى الله عليه وسلم .

فاجتمع أشراف قريش من بني عبد شمس ومن بني نوفل ابن عبد مناف ، ومن بني عبد الدار بن قصي ومن بني أسد بن عبد العزى وغيرهم ، فقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما رأيتم فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتّبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأياً . .

فقال قائل : نحبسه في الحديد ونغلق عليه باباً حتّى يصيبه ما أصاب أشباهه من الشعراء قبله . .

وقال قائل : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فإذا خرج عنا فو الله ما نبالى أين ذهب ولا حيث وقع .

فقال أبو جهل بن هشام :

والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد .

---

١ ـ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٢٤

قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً نسيباً وسيطاً (١) ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً .

إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى : (٢)

« وإذْ يمكُر بِكَ الّذِين كَفَرُوا ليُثْبِتُوكَ أو يَقْتُلوكَ أوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ ويمكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الماكِرِين »

وقوله تعالى : (٣)

« أم يقُولُون شاعِرٌ نتربّص به رَيْبَ المنونْ » .

× × ×

---

١ ــ الانفال : الآية ٣٠

٢ ــ الوسيط : الشريف فى قومه

٣ ــ الطور : الآية ٣٠

العهــد المــدنى

الهجرة من مكة والوصول الى المدينة

الهجرة وحديث غار ثور :

قال ابن هشام : (١) قال ابن إسحاق رحمهما الله :

« فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج أتى أبا بكر بن قحافة رضي الله عنه فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته ، ثم عمدا إلى غارٍ بجبل ثور فدخلاه » .

وقال ابن هشام :

« وانتهيا إلى الغار ليلاً ، فدخل أبو بكر رضي الله عنه قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلمس الغار لينظر أفيه سبع أو حية ، ليقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه » .

قال ابن اسحاق :

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار ثلاثاً ومعه أبو بكر ، وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائة ناقة لمن يرده عليهم .

---

١ ـ السيرة لابن هشام ج ٢ ص ١٣٠ ومـا بعدها

وكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهاره معهم ، يسمع ما يأتمرون به ، وما يقولون في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر ، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر .

وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه ، يرعى في رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر ، فاحتلبا وذبحا ، فإذا غدا عبد الله بن أبي بكر من عندهما اتّبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يُعَفِّي عليه .

حتّى إذا مضت الثلاث وسكن عنهما الناس ، أتاهما صاحبهما الذي استأجراه(١) ببعيرهما وبعير له وأتتهما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها بسُفْرَتهما ، ونسيت أن تجعل لها عصاماً (٢) ، فلما ارتحلا ذهبت لتعلّق السفرة فإذا ليس لها عصام فحلت نطاقها — ويقال شقت نطاقها — فعلقت السفرة بواحد وانتطقت بالآخر ، ولذا سمّيت بذات النطاقين .

* * *

عن الهجرة وما حدث في الغار يقول الحق تبارك وتعالى :(٣)

« إلاَّ تَنْصُرُوه فقد نَصَرَهُ الله إذْ أخْرَجَهُ الّذِينَ كفَرُوا

---

١ — كان أبو بكر رضى الله عنه قد استعد لمثل هـــذا اليوم فاستأجر عبد الله بن أرقط — ويقال أريقط — وكان مشركا ليدلهما على الطريق . انظر ابن هشام ج ٢ ص ١٢٩

٢ — العصام ما تعلق به السفرة وغيرها

٣ — التوبة : ٤٠

ثَانِيَ اثْنَيْنِ إذْ هُمَا فِي الغَارِ إذْ يقُولُ لصاحبِهِ لا تَحْزَنْ إنَّ اللهَ مَعَنَا ، فأنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ علَيْهِ وأيَّدَهُ بِجُنُودٍ لم تَرَوْهَا ، وجَعَلَ كلمة الّذينَ كفروا السُّفْلَى وكلِمةُ اللهِ هي العلْيا والله عزيزٌ حكيمٌ » .

* * *

لقد عالجت كتب السيرة الأحداث من خارجها : تآمر الكفار ، وإقدامهم على محاولة قتله ، وما حدث ساعة خروج الرسول من أخذ الله لأبصارهم عنه ، ثم اشتغالهم بالبحث عنه ورصدهم الجوائز لمن يأتيهم به . . إلى آخره . .

لكن بيان القرآن يعطي للأحداث مذاقاً آخر ، فيه استخلاص حكمة الحدث كله والدلالة على موطن الاعتبار فيه ، وبيان أن هذا النبي الداعي إلى الحق منصور بإذن الله وتأييده سواء استجاب له الناس أو قاوموه ، ولذا يأتي مطلع الآية التي تتحدث عن ليلة الهجرة ليؤكد هذا المعنى في قوله :

« **إلا تنصروه فقد نصره الله** » ومعنى هذا أن على المؤمنين ألا يتقاعسوا عن نصرته وطاعة أمره في المكره قبل المنْشَط .

يدلّ على هذا المناخُ المحيط بذكر حديث الهجرة في القرآن .. وهو مناخ الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله والصبر على مشاق

هذه الدعوة والذي دلت عليه الآيتان السابقتان وهما قوله تبارك وتعالى : (١)

« يا أيّها الّذين آمنُوا ما لكُم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقَلْتُم إلى الأرض أرضيتُم بالحياة الدُّنيا من الآخرة فما متاعُ الحياةِ الدّنيا في الآخرة إلاّ قليلٌ . إلاّ تنفِرُوا يعذّبْكُم عذاباً أليماً ويستبدِلْ قوماً غيركُم ولا تضروه شيئاً والله علَى كلّ شيء قديرٌ » .

* * *

والميزة الثانية لبيان القرآن هنا أنه قد وصف أعماق الجانب البشري في الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يطمئن صاحبه ويربط على قلبه في ساعة الروع الأكبر ويقول له « **لا تحزن إن الله معنا** » وهي إشارة بليغة إلى أثر من آثار صنائع الطاقة الإيمانية الهائلة التي لم يفقد ثقتها لحظة في صدق وعد الله . ولذا استحقت أن ينصرها الله وينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه سكينته ويؤيده بجنود لم يرها أحد . .

والثالثة أن كتب السيرة تكتفي أو قد اكتفت في هذا الحادث بعرض ما جرى يوماً بعد يوم من غير أن تحاول الإفادة به . .

---

١ ـ التوبة : الآيتان ٣٨ ـ ٣٩

لكنه في البيان القرآني يأتي ـ كما أشرنا ـ تعقيباً على أمر وتقدمة لآخر ، وهو بينهما النموذج الذي يعرضه القرآن لكي لا يرتاب الناس فيما يدعون إليه من الجهاد في سبيل الله والصبر على مشاق الدعوة ولذا نراه يعقب على ما جرى في الغار بقوله تعالى : (١)

« إنْفِرُوا خِفافاً وثِقالاً وجاهِدُوا بأموالِكُم وأنفُسِكم في سَبِيل الله ، ذلكُم خَيرٌ لكم إنْ كنتُم تعلمون » .

وهذا هو الفارق بين السيرة في كتب السيرة والسيرة في بيان القرآن . .

* * *

الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة

قال ابن كثير رحمه الله : (٢)

ولما حلّ الركاب النبويّ بالمدينة وكان أول نزوله بها في دار بني عمرو بن عوف وهي « قباء » فأقام بها أياماً بنى فيها مسجده بقباء : أول مسجد بني في الإسلام .

ونقل عن البيهقي عن ابن عائشة يقول : لما قدم رسول الله

---

١ ـ التوبة : الآية ٤١

٢ ـ سيرة ابن كثير ج ٢ ص ٢٩٢ وانظر ابن هشام ج ٢ ص ١٣٨

صلى الله عليه وسلم المدينة جعل النساء والصبيان يقلن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

قال ابن هشام : قال ابن اسحاق رحمهما الله :

ثم أخرجه الله من بين أظهرهم يوم الجمعة فأتته وفود القبائل تعرض عليه أن ينزل عندها في العَدَد والعدة والمنعة ، فقال صلوات الله وسلامه عليه كلمته المشهورة عن ناقته « خلّوا سبيلها فإنها مأمورة » .

ومضت الناقة برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت عند المكان الذي بني فيه مسجده صلى الله عليه وسلم .

قال : فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجداً وعمل فيه بيده ليرغب الناس في العمل وعمل معه المهاجرون والأنصار وقال قائلهم :

لئن قعدْنا والنبيّ يعمل لذاك منا العمل المضلّل

وارتجز علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول :

لا يستوي من يعمر المساجدا يدْأبُ فيه قائماً وقاعداً
ومن يُرى عن الغبار حائداً

قال ابن اسحاق رحمه الله : (١)

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أبي أيوب حتى بنى له مسجده ومساكنه ، ثم انتقل إلى مساكنه من بيت أبي أيوب رحمة الله عليه ورضوانه .

وعلى ذكر أبي أيوب رضي الله عنه نتحدث عن واحدة من أصفى حالات الحبّ والحنوّ التي أحاط بها الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة .

قال ابن اسحاق : (٢)

وحدثني يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن عبد الله اليَزَنيّ عن أبي رهم السّماعي قال : حدثني أبو أيوب قال :

لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي نزل في السُّفْل ، وأنا وأم أيوب في العُلْو ، فقلت له : يا نبي الله ، بأبي أنت وأمي ، إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي ، فاظهر أنت فكن في العلو ، وننزل نحن فنكون في السفل ، فقال :

يا أبا أيوب : إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت .

١ ـ ابن هشام ج ١٤٣/٢
٢ ـ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٤٤

قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفل البيت وكنا فوقه في المسكن .

ولقد انكسر لنا حُبٌّ (١) فيه ماء ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ، ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شيء فيؤذيه ! !

أرأيت أيها القارئ الكريم أين كان يقيم رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما نزل مهاجراً إلى المدينة لقد كان يقيم في بيت أبي أيوب بل في حنايا قلبه وبين عينيه ، وهكذا كان مقامه صلوات الله وسلامه عليه بين أنصاره في المدينة . . تحتويه الأفئدة أكثر مما تحيط به الأيدي والسواعد . .

وكما أحيط رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحب من أنصار المدينة أحيط به كذلك كل من جاء معه من المهاجرين الذين آخى بينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على نحو لم يرد له في التاريخ نظير كما هو معروف . .

* * *

ولقد عبّر القرآن الكريم عن هذا في مثل قول الحق تبارك وتعالى : (٢)

---

١ ـ الحب : بضم الحاء الجرة الضخمة

٢ ـ سورة الحشر : الآية ٩

« والّذينَ تَبوَّأوا الدّارَ والإيمانَ من قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ من هَاجَرَ إلَيهمْ ولاَ يجدُونَ في صُدُورهم حَاجة ممّا أوتوا ويؤثِرونَ على أنفُسِهِم ولَوْ كانَ بهم خَصَاصَة ومن يُوقَ شُحَّ نفسِهِ فأولَئكَ هم المفلِحون » .

× × ×

العهد المدنى :

حديث اليهود فى المدينة

مبادرتهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالعداء :

وما أن استقر المقام بالرسول صلى الله عليه وسلم والمهاجرين معه في المدينة حتى أخذ اليهود يكيدون لهم ويناصبونهم العداء حقداً وحسداً على ما أفاء عليهم الله من فضله .

قال ابن إسحاق رحمه الله : (١)

« ونصبت أحبار يهود العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بغياً وحسداً وضِغناً لِمَا خَصَّ الله به العرب من أخذه رسوله منهم ، وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ممن كان عسى (٢) على جاهليته ، فكانوا أهل نفاق ، على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث ، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره ، واجتماع قومهم عليه ، فظهروا بالإسلام واتخذوه جُنّة من القتل ، ونافقوا في السرّ ، وكان هواهم مع يهود .

قال :

وكانت أحبار يهود هم الذين يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتعنتونه (٣) ، ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق

---

١ ـ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦٠ ومثله فى ابن كثير ج ٢ ص ٣٤٢

٢ ـ بقى على جاهليته　　　٣ ـ يشقون عليه

بالباطل ، فكان القرآن ينزل فيهم فيما يسألون عنه ، إلا قليلا من المسائل في الحرام والحلال كان المسلمون يسألون عنها .

وبعد أن ذكر أسماء كبار اليهود قال :

فهؤلاء أحبار اليهود ، وأهل الشرور والعداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه . . إلا ما كان من عبد الله بن سلاّم.. ومخيريق .

* * *

شهادة عن هذا العداء :

قال ابن إسحاق : (١) راوياً عن صفية بنت حُيَيّ بن أخطب قالت :

كنت أحبّ وَلَد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر ، لم ألقهما قطّ مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه . قالت : فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة . . ونزل قُباء في بني عمرو بن عوف . غَدَا عليه أبي : حُيَيٌّ بن أخطب وعمّي أبو ياسر ، فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس ، قالت فأتيا كالّيْن ، كسلانين ، ساقطين يمشيان الْهُوَينى ، قالت : فهششت إليهما كما كنت أصنع ، فو الله ما التفتَ إليّ واحدٌ منهما ، لما بهما من الغمّ .

---

١ ـ ابن هشام ج ٢ ص ١٦٥

قالت : وسمعت عمّي يقول لأبي : أهو هو ؟ قل : نعم والله ؛ قال : أتعرفه وتثبته ؟ قال : نعم : قال فما في نفسك منه ؟

قال : عداوته ما بقيت .

* * *

وسنرى فيما بعد من ألوان عداوة اليهود للرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين ما يفوق لحصر ، وما يحرّكه الحقد الشديد على ظهور الإسلام وغلبة محمد صلى الله عليه وسلم على أعداء الله من المشركين . .

* * *

ومع أن القرآن الكريم قد نزلت فيه آيات كثيرة تحدد سمات هؤلاء وتصف النماذج المختلفة من ألوان سلوكهم كما سنري بعد..

لكن عداء اليهود في جملته قد جاء بمثابة إعلان أو حكم لا يقبل الجدل في مثل قوله تبارك وتعالى : (١)

« لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النّاس عَدَاوَةً للذينَ آمنوا الْيَهودَ والذين أشركوا » . .

وقوله تعالى : (٢)

« يا أيّها الذين آمنُوا لا تَتّخِذُوا بِطانةً من دُونِكُمْ

١ ـ المائدة : الآية ٨٢

٢ ـ آل عمرن : الآية : الآيات ١١٨ ـ ١٢٠

لا يألُونكُم خبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتْ البَغْضَاءُ منْ أَفْواهِهِم ، وما تُخْفي صُدُورهمْ أكبَرُ قد بيّنّا لكُم الآيَاتِ إنْ كنتُم تَعْقِلُونَ . ها أنتُم أولاء تُحبُّونَهم ولاَ يُحِبُّونكُم ، وتؤمِنُون بالكتَابِ كلّه وَإذَا لَقُوكُم قَالوا آمنّا وإذَا خَلَوْا عَضُّوا عليكُم الأنامِلَ من الغَيْظ قُلْ مُوتُوا بغيظكم إن الله عليمٌ بذاتِ الصُّدور . إنْ تَمْسَسْكُم حَسَنَةٌ تَسُؤْهم وإن تُصِبْكُم سَيِّئَةٌ يفْرَحُوا بها وإنْ تصْبِرُوا وتَتّقُوا لا يَضرُّكُم كيدُهُم شيئاً إنّ الله بما يعملُونَ مُحيطٌ » .

وقوله تعالى : (١)

« وَلمّا جاءهُم كتَابٌ مِنْ عندِ الله مُصدّقاً لِمَا معهُم وكانوا من قبل يستفتحون على الذينَ كفَرُوا فلمّا جاءهُم ما عَرفُوا كفرُوا به فلعنةُ الله علَى الكافرينَ . بئسما اشتَروْا به أنفُسهم أنْ يكفرُوا بما أنزلَ الله بغياً أنْ ينزّل الله منْ فضْلِهِ على من يشَاءُ من عبَاده فباءوا بغضَبٍ على غَضَبٍ وللكافرين عذابٌ مُهينٌ » .

* * *

---

١ ــ البقرة : الآية ٨٩ ــ ٩٠

وسنعرض فيما يلي نماذج من عداء اليهود للرسول صلى الله عليه وسلم كما أوردتها كتب السيرة وكما جاء وصفها في بيان القرآن.

* * *

عدونا جبريل :

قال ابن هشام : قال ابن اسحاق رحمهما الله : (٢)

« إن نفراً من أحبار يهود جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد ، أخبرنا عن أربع قال : فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

عليكم بذلك عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدقنّني قالوا : نعم . قال : فاسألوا عما بدا لكم .

فأخذ أحبار اليهود يسألون عن الولد كيف يشبه أمه والنطفة من الرجل ؟

وسألوه عما حرّم إسرائيل على نفسه . ثم سألوه : أخبرنا عن الروح ؟ فقال صلى الله عليه وسلم :

أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل هل تعلمونه جبريل ؟ وهو الذي يأتيني ؟ قالوا : اللهم نعم ، ولكنه يا محمد لنا عدو وهو ملك إنّما يأتي بالشدة وسفك الدماء ولولا ذلك لاتبعناك .

---

١ ـ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٩١

عن هذا المعنى يتحدث القرآن في قوله تعالى : (١)

« قُلْ منْ كَانَ عدوًّا لجبْريلَ فإنّه نزَّله على قَلْبِكَ بإذْنِ الله مصدّقاً لما بيْنَ يدَيْه وهدًى وبشْرَى للمؤْمنِينَ . منْ كَانَ عدُوًّا للهِ وملائِكَتِه ورُسِله وجِبْريلَ وميكَالَ فَإِنَّ اللهَ عدوٌّ للْكافِرِينَ » .

وسليمان ساحر :

روى ابن هشام : (٢) قال ابن إسحاق رحمهما الله :

لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم سليمان بن داود عليه السلام في المرسلين قال بعض أحبار اليهود :

ألا تعجبون من محمد ، يزعم أن سليمان بن داود كان نبياً ، والله ما كان إلا ساحراً .

وعن هذا يقول القرآن الكريم : (٣)

« واتَّبَعُوا ما تَتْلُو الشّياطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، ومَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ولكِنَّ الشّياطِينَ كفَرُوا يعلِّمون النّاسَ السِّحْرَ » . .

١ ـ البقرة : الآيتان ٩٧ ـ ٩٨

٢ ـ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٩٢

٣ ـ البقرة : الآية ١٠٣

فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به :

جاء في السيرة : (١) قال ابن اسحاق :

إن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه .

فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه : فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء : يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك و تخبروننا أنه مبعوث وتصفوه لنا بصفته فقال أحدهم : ما جاءنا محمد بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكره لكم .

عن هذا يقول القرآن : (٢)

« ولما جاءهُم كتابٌ من عِنْدِ الله مصدِّقٌ لما معَهُم وكانُوا مِن قَبلُ يستَفْتِحُونَ علَى الّذينَ كَفرُوا فلَمّا جاءهُم ما عرَفُوا كفَروا به فلَعْنَةُ الله علَى الكافِرينَ . بِئسَمَا اشْتَروْا به أنفُسَهم أن يكفُروا بما أنزلَ الله بغياً أن يُنزّل الله من فضلِهِ علَى من يشَاء من عباده فباءُوا بغضَبٍ على غضبٍ وللكافِرينَ عذابٌ مهين » .

---

١ ـ ابن هشام ج ٢ ص ١٩٦

٢ ـ البقرة : الآيتان ٨٩ ـ ٩٠

كما سئل موسى من قبل :

قال ابن هشام : (١) قال ابن رحمهما الله إسحاق :

وقال رافع بن حريملة ووهب بن زيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا محمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه وفجّر لنا أنهاراً نتبعْك ونصدقك .

في هذا يقول القرآن الكريم : (٢)

« أم تُرِيدُون أنْ تَسألُوا رَسُولكُم كما سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ومنْ يَتَبدَّل الكُفْرَ بالإيمَانِ فقدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ » .

وقوله تعالى :

« كما سئل موسى من قبل » إشارة إلى ما ورد في سورة البقرة(٣) .

« وإذْ قلتُم يا مُوسَى لَنْ نؤْمِنَ لَكَ حتّى نَرى الله جَهْرةً فأخذَتكُم الصَّاعِقَةُ وأنتُم تَنْظُرون » .

وما ورد كذلك في سورة النساء : (٤).

« يَسألُك أهلُ الكِتَابِ أنْ تُنزِّلَ علَيهِمْ كِتَاباً مِنَ

١ ـ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٩٧ ـ ١٩٨
٢ ـ البقرة : الآية ١٠٨
٣ ـ البقرة : الآية ٥٥
٤ ـ النساء : الآية ١٥٣

السّماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البيّنات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً » .

لولا يكلمنا الله :

روى ابن هشام : قال ابن اسحاق : (١) رحمهما الله :

وقال رافع بن حريملة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . يا محمد : إن كنت رسولاً من الله كما تقول فقل لله ليكلمنا حتى نسمع كلامه .

عن هذا يقول القرآن الكريم : (٢)

« وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم ، قد بيّنا الآيات لقوم يوقنون » .

اتبعنا يا محمد تهتد :

قال ابن إسحاق : (٣)

وقال عبد الله بن صوريا لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

١ ـ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٩٨ ٢ ـ البقرة : الآية ١١٨

٣ ـ السيرة لابن هشام ج ٢ ص ١٩٨

ما الهدى يا محمد إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد . . وقالت النصارى مثل ذلك .

عن هذا يتحدث القرآن في قوله تعالى : (١)

« وقَالُوا كونُوا هودًا أو نَصَارى تهْتَدُوا قلْ بَلْ مِلّةَ إبرَاهِيمَ حنيفاً وما كَانَ مِنَ المشْركِينَ . قولُوا آمنّا باللهِ وما أُنْزِلَ إلينَا وما أنزلَ إلَى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أوتي موسَى وعيسَى وما أُوتِيَ النبيُّونَ من ربِّهم لا نفرّقُ بينَ أحدٍ منهم ونحنُ لَه مسلِمون » .

ما ولاّك عن قبلتك ؟

جاء في السيرة : (٢)

لما صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة وصرفت في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قدم نفر من يهود وقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم :

يا محمد ما ولاّكَ عن قبلتك التي كنت عليها ، وأنت تزعم أنك على ملّة إبراهيم ودينه ؟ إرجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك ، وإنما يريدون فتنته عن دينه .

---

١ ـ البقرة : الآيات ١٣٥ ـ ١٣٦

٢ ـ ابن هشام ج ٢ ص ١٩٨ ـ ١٩٩

إلى هذا يشير القرآن في قوله تعالى : (١)

« سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِم الَّتِي كَانُوا عليها قُلْ للهِ المشرِقُ والمغْرِبُ يَهدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وكذلِكَ جَعَلْنَاكُم أُمةً وسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ علَى النَّاسِ ويكُونَ الرَّسولُ عليكُم شَهِيداً وما جعَلْنَا القِبلَةَ الَّتِي كُنْتَ عليها إلا لِنَعلَم مَنْ يتَّبِع الرَّسولَ مِمَّنْ ينقَلِب علَى عقبيه وإن كانت لكبيرةً إلا على الذين هَدَى اللهُ وما كَانَ الله ليضيعَ إيمانكُم إنَّ الله بالناسِ لَرَءُوفٌ رحيم » .

وقوله تعالي :

« قدْ نَرى تقلُّبَ وجهِكَ في السَّماء فلنوَلِّينكَ قِبلةً تَرضَاهَا فَولِّ وجهكَ شطْرَ المسْجد الحَرَامِ وحيثُ ما كنتُم فولُّوا وجُوهَكم شطره وإن الذين أُوتُوا الكِتابَ ليعلَمونَ أنّه الحقُّ من ربِّهم وما اللهُ بغَافلٍ عمّا يعملُون . ولئِن أتيتَ الَّذينَ أوتوا الكِتابَ بكلّ آية ما تَبعُوا قبلتك وما أنت بتابعٍ قبلتَهم وما بعضُهم بتابعٍ قبلةَ بعض ولئن اتّبعتَ أهواءهُم من بعْد ما جاءك من العلْم إنّك إذاً لمن الظالمِينَ » .

١ ـ سورة البقرة : الآيات ١٤٢ ـ ١٤٥

لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس :

جاء في السيرة : (١)

ولما أصاب الله عز وجل قريشاً يوم بدر جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود في سوق بني قينقاع وقال لهم :

يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب قريشاً . . فقالوا :

يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس . . وأنك لم تلق مثلنا .

عن هذا يتحدث القرآن في قوله تعالى : (٢)

« قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ » .

---

١ ــ سيرة بن هشام اج ٢ ص ٢٠١

٢ ــ آل عمران : الآيتان ١٢ ــ ١٣

لم تحاجون في إبراهيم ؟

روى ابن هشام : قال ابن اسحاق : (١)

« دخل رسول الله صلى لله عليه وسلم بيتاً لليهود يتدارسون(٢) فيه كتابهم ، فدعاهم إلى الله فقال أحدهم :

على أي دين أنت يا محمد ؟

قال على ملة ابراهيم ودينه . .

قال : إن إبراهيم كان يهودياً .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : فهلم إلى التوراة فهي بيننا وبينكم . . فأبوا عليه الاحتكام إليها . .

وقال بعض النصارى : مثل ذلك . .

عن هذا يتحدث القرآن في قوله تعالى : (٣)

---

١ ـ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٠١

٢ ـ فى السيرة دخل بيت المدراس ، وهـوبيت لليهود يتدارسون فيه كتابهم ، وتسميه بعض الروايات بيت المدارس والاول أولى .

٣ ـ آل عمران : الآيتان ٢٣ ـ ٢٤

« ألَم تَرَ إلى الّذِينَ أوتُوا نصِيباً من الكِتَابِ يُدْعَوْنَ إلى كِتَابِ الله ليحْكُم بينَهُم ثم يتولّى فريقٌ منْهم وهُم مُعرِضُونَ . ذلِك بأنهم قالُوا لنْ تمسّنَا النّارُ إلاّ أياماً معدوداتٍ وغرَّهم في دينهِم ما كانُوا يفترونَ » .

وقوله تعالى : (١)

« يا أهلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ في إبرَاهيمَ وَمَا أُنزِلَت التّورَاةُ والإنْجيلُ إلاّ مِنْ بَعدِهِ أفلاَ تعْقِلُونَ . ها أنتُم هَؤلآء حاجَجْتُم فِيمَا لكُم بِه علمٌ فلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا ليسَ لَكُم بِه عِلمٌ والله يعلَم وأنتُم لاَ تعلَمونَ . ما كانَ إبرَاهِيمُ يهودِيّاً ولاَ نَصرانِيّاً ولكِنْ كَانَ حنِيفاً مُسلِماً وما كَانَ مِنَ المُشْرِكينَ . إنَّ أولَى النّاسِ بإبرَاهِيمَ لَلّذِينَ اتّبعُوهُ وهذَا النّبِيُّ والّذِينَ آمنُوا واللهُ ولِيُّ المُؤمِنِينَ » .

آمِنوا وجه النهار واكفُروا آخره :

قال ابن هشام : قال ابن اسحاق : (٢)

---

١ ــ آل عمران : الآيات ٦٥ ــ ٦٨

٢ ــ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٠٢

وقال نفر من أهل الكتاب – سماهم – تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ، ونكفر به عشية ، حتّى نلبس عليهم دينهم ، لعلهم يصنعون كما نصنع ، ويرجعون عن دينه .

في هذا يقول القرآن الكريم : (١)

« وقالَتْ طائفةٌ من أهلِ الكِتابِ آمِنُوا بالّذِي أُنزِلَ علَى الّذِينَ آمنُوا وجْهَ النّهارِ واكْفُرُوا آخِرَه لعلّهم يرجِعُونَ » .

أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ :

قال ابن اسحاق : (٢)

مرّ شيخ من يهود عظيم الكفر شديد الضِّغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ، مرّ على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من أُلْفَتهم وجماعتهم ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال :

قد اجتمع ملأُ بني قَيْلة (٣) بهذه البلاد ، ولا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم من قرار .

---

١ – آل عمران : الآية ٧٢
٢ – سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٠٥
٣ – الملا : الاشراف

قال : فأمر شاباً من يهود كان معهم فقال له :

إعْمِدْ إليهم ، فاجلس معهم ثم اذكر يوم بُعاث (١) وما كان قبله ، وأنشدهم ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار :

قال : ففعل الفتى وتكلم القوم حتى أخذوا السلاح وتداعوا إليه ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم وقال :

يا معشر المسلمين : الله الله . . أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهُرِكم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع عنكم به أمرَ الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم ؟

عن هذا يقول القرآن الكريم : (٢)

« يا أيُّها الّذِينَ آمنُوا إنْ تُطِيعُوا فرِيقاً مِنَ الّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ يردُّوكُمْ بعدَ إيمَانِكُم كَافِرِينَ . وكَيفَ تكفُرونَ وأَنتُم تُتلَى علَيكُم آياتُ اللهِ وفِيكُم رسولُه ومن يَعتَصِم باللهِ فقد هُدِيَ إلَى صِراطٍ مُّستَقِيمٍ . يا أيهَا الّذِينَ آمنُوا اتّقُوا اللهَ حقَّ تُقاتِه ولا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأنتُم مسلِمونَ . واعتصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جميعاً ولا تفَرَّقوا واذْكُرُوا نِعمةَ اللهِ علَيكم إذ كنتم أعداء فألّف بينَ قُلوبكُم فأصبحْتُم بنعمَتِهِ

١ ــ يوم بعاث : كان يوم قتال شديد بين الاوس والخزرج وفيه انتصرت الاوس

٢ ــ آل عمران : الآيات ١٠٠ ــ ١٠٣

إخْواناً وكنتُم علَى شفَا حفْرَةٍ من النّارِ فأنقذَكُم منها كذَلِكَ يبيِّنُ الله لكُم آياتِهِ لعلّكُم تهْتدون » .

تحبونهم ولا يحبونكم :

قال ابن إسحاق : (١)

وكان رجالٌ من المسلمين يواصلون رجالاً من اليهود ، لما كان بينهم من الجوار والحلف فنهوا عن ذلك .

عن هذا يتحدث القرآن في قوله تعالى : (٢)

« يا أيُّها الّذِينَ آمنُوا لا تتّخِذُوا بطانةً من دونكُم لا يألونكُم خبالاً وَدُّوا ما عَنِتُّم قَدْ بدَت البَغْضَاءُ من أفواهِهِم وما تُخفِي صدُورهُم أكبرُ قدْ بيّنَا لكم الآياتِ إنْ كُنتُم تعقِلُون . ها أنتُم أُولاَءِ تحبُّونَهم ولا يُحِبُّونَكُم وتؤْمِنُونَ بالكِتَابِ كُلِّه وإذَا لَقُوكُم قالُوا آمنّا وإذَا خلَوْا عضُّوا علَيكُم الأنَامِلَ منَ الغَيْظِ قلْ موتُوا بغيْظِكم إنَّ الله علِيمٌ بذَاتِ الصُّدُورِ » .

---

١ ـ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٠٧

٢ ـ آل عمران : الآيات ١١٨ ـ ١٢٠

محاولة القتل بالصخرة :

قال ابن هشام : (١) قال ابن اسحاق :

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير يستعينهم في دية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري ، فلما خلا بعضهم إلى بعض قالوا :

لن تجدوا محمداً أقرب منه الآن . فمن رجل يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فقال عمرو بن جحاش أنا . . فأتى رسول الله الخبر فانصرف عنهم .

عن هذه الحادثة يقول القرآن : (٢)

« يا أيُّها الّذِينَ آمنُوا اذْكُرُوا نِعمةَ اللهِ عليكُم إذْ هَمَّ قومٌ أنْ يَبْسُطُوا إليكُم أيدِيَهُم فكفَّ أيدِيَهُم عنكُم واتّقُوا اللهَ وعلَى اللهِ فَلْيتوكّلِ المُؤْمِنُونَ » .

قالوا آمنا بأفواههم :

روى ابن هشام قال : (٣)

حين أنكر اليهود ما في كتبهم عن رجم الزانية المحصنة

---

١ ـ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢١١ ـ ٢١٢

٢ ـ سورة المائدة : الآية ١١

٣ ـ السيرة لابن هشام ج ٢ ص ٢١٣ـ٢١٤ .

« مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى أحبارهم في بيت المدراس فقال : يا معشر يهود ؛ أخرجوا إليَّ علماءكم ، فأخرجوا له عبد الله بن صُوريا . وقالوا هو أعلم من بقي بالتوراة .

قال : فخلا به رسول الله صلى الله عليه وسلم — وكان غلاماً شاباً من أحدثهم سناً فألظَّ به (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم المسألة يقول له :

يا ابن صوريا : أنشدك الله وأذكّرك بأيامه عند بني إسرائيل ؛ هل تعلم أن الله حكم فيمن زنى بعد إحصانه بالرجم في التوراة ؟

قال : اللهم نعم ، أما والله يا أبا القاسم إنهم ليعرفون أنك نبيٌّ مرسلٌ ولكنهم يحسدونك .

قال : ثم كفر بعد ذلك ابن صوريا وجحد نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وفي هذا يقول القرآن الكريم : (٢)

« يا أيُّها الرَّسُولُ لا يحزُنْكَ الّذينَ يُسارِعُونَ في الكُفْرِ من الّذينَ قالُوا آمنّا بأفوَاهِهِم ولَمْ تؤْمِن قلُوبُهم ومن الّذينَ هَادُوا سمّاعونَ للكَذِب سمّاعُونَ لقَومٍ آخرينَ لمْ يأتوكَ يحرِّفُونَ الكلِمَ مِن بعد موَاضِعه يقولُون إن أوتيتُم

١ — ألح وضيق عليه الخناق ٢ — سورة المائدة : الآية ٤١

هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم » .

محاولتهم فتنة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن دينه :

روى ابن هشام : قال ابن اسحاق : (١)

قال كعب بن أسد ونفر من يهود سماهم : اذهبوا بنا إلى محمد – صلى الله عليه وسلم – لعلنا نفتنه عن دينه فإنما هو بشر ، فأتوه فقالوا له :

يا محمد : إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم وأنا إن اتبعناك اتبعتك يهود . ولم يخالفونا ؛ وأن بيننا وبين بعض قومنا خصومة ، أفنحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم ، ونؤمن بك ونصدقك ؟

قال : فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عن هذه المحاولة جاء في القرآن الكريم : (١)

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم

١ – سورة المائدة : الآيتان ٤٩ – ٥٠

وإن كَثيراً من النّاسِ لَفَاسِقُونَ . أَفَحكمْ الجاهليّة يبغُونَ ومن أحسنُ من اللهِ حكماً لقومٍ يُوقِنونَ » .

لا نؤمن بمن آمن بعيسى :

قال ابن هشام : قال ابن إسحاق : (١)

« أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر منهم –من اليهود – فسألوه عما يؤمن به من الرسل : فقال صلى الله عليه وسلم :

« نؤمن بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط . وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم . لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

قال : فلما ذكر عيسى ابن مريم جحدوا بنوته وقالوا :

لا نؤمن بعيسى ابن مريم ولا بمن آمن به .

جاء ذلك في القرآن في قوله تعالى : (٢)

« قولُوا آمنّا باللهِ وما أُنزِلَ إلَينا وما أُنزِلَ إلى إبرَاهيمَ وإسحَاقَ ويعقُوبَ والأسبَاطِ ومَا أُوتيَ مُوسَى وعيسى وما أُوتيَ النبيُّونَ من ربِّهم لا نُفَرِّقُ بين أَحَدٍ منهُم ونحن له مُسلمُونَ » .

---

١ ـ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢١٦

٣ ـ البقرة : الآية ١٣٦

وقوله تعالى (١) :

« قلْ يا أَهلَ الكتابِ هلْ تَنْقِمُونَ مِنّا إلاّ أنْ آمنّا باللهِ وما أُنزِلَ إلينَا وما أُنزِلَ من قَبلُ وأن أَكثرَكُم فَاسِقُونَ » .

حتّى تقيموا التوراة والإنجيل :

في السيرة لابن هشام(٢) :

جاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا :
يا محمد ألست تزعم أنك على ملّة إبراهيم ودينه وتؤمن بما عندنا من التوراة وتشهد أنها من الله حق ؟ !

قال : بلى ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ الله عليكم من الميثاق ، وكتمتم منها ما أُمرتُم أن تبينوه للناس فَبَرِئْتُ من إحْداثكم .

قالوا : فإنا نأخذ بما بأيدينا وأنا على الهدى والحق ولا نتبعك ولا نؤمن بك .

عن هذا الحديث جاء في القرآن الكريم قوله تعالى : (٣)

« قلْ يا أَهلَ الكتابِ لَستُم علَى شَيءٍ حتّى تُقيمُوا التّورَاةَ والإنْجيلَ وما أُنْزِلَ إليكُم منْ ربّكُم ولَيَزِيدَنَّ

---

١ ـ المائدة : الآية ٥٩
٢ ـ ج ٢ ص ٢١٧
٣ ـ سورة المائدة : الآية ٦٨

كثيراً منهم ما أُنزِلَ إليكَ من ربِّكَ طغياناً وكفراً فلا تأسَ علَى الْقَوم ِ الكافِرينَ » .

إنما هو إله واحد :

في السيرة لابن هشام : (١)

أن نفراً من اليهود قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم :

يا محمد ألا تعلم مع الله إلهاً غيره ؟ فقال صلى الله عليه وسلم :

الله لا إله إلا هو ، بذلك بُعثت ، وإلى ذلك أدعو .

جاء في القرآن عن هذا قوله تعالى : (٢)

« قُلْ أيُّ شَيءٍ أكْبرُ شَهَادَةً قل اللهُ شَهيدٌ بيْني وبينَكُم وأوحِيَ إليَّ هذَا الْقُرآنُ لأنْذِرَكُم به ومَنْ بَلَغَ أئنَّكُم لتَشْهَدُونَ أن معَ اللهِ آلهةً أخرَى قُلْ لاَ أَشْهدُ قلْ إنّما هوَ إلهٌ واحِدٌ وَإنّني بَرِيءٌ مِمّا تُشْرِكُونَ » .

لا تتخذوهم أولياء :

جاء في السيرة لابن هشام : (٣)

أن رجلين من اليهود أظهرا الإسلامَ ونافقا ، وكان رجالٌ من المسلمين يوادُّونهما فنُهي المسلمون عن مودتهما .

---

١ ـ ج ٢ ص ١٢٧
٢ ـ الانعام : الآية ١٩
٣ ـ ج ٢ ص ٢١٨

جاء في القرآن عنهما قول الله تعالى : (١)

« يا أَيُّها الّذينَ آمنُوا لا تَتّخذُوا الّذينَ اتّخَذُوا دينَكُم هزُواً ولَعِباً منَ الّذينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قبْلِكم والكُفّارَ أَولياء . . » الآيات إلى قوله تعالى :

« وإذَا جاءُوكم قَالُوا آمنّا وقَدْ دَخَلُوا بالكُفرِ وهُمْ قَدْ خرَجُوا به واللهُ أَعلَم بما كَانُوا يكتُمونَ »

متى قيام الساعة : ؟

في السيرة لابن هشام : (٢)

جاء نفر من اليهود يطلبون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم عن الساعة لكي يؤمنوا به .

وفي القرآن يقول الحق تبارك وتعالى : (٣)

« يسألونَكَ عَن السّاعَةِ أَيّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إنّمَا عِلْمها عِنْدَ رَبّي لاَ يُجَلّيها لوَقْتِها إلاّ هُوَ ثقُلت في السّموات والأرضِ لاَ تأتيكُم إلا بغتةً يسألونكَ كأنكَ حَفِيٌّ عنها قُلْ إنّما علمُها عندَ اللهِ ولكنّ أكثرَ النّاسِ لا يعلَمُون » .

---

١ ـ المائدة : الآيات ٥٧ ـ ٦١

٢ ـ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢١٨

٣ ـ الاعراف : الآية ١٨٧

قل عزير بن الله نتبعك :

جاء في السيرة : (١)

نفر من يهود يقولون للرسول صلى الله عليه وسلم كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وتزعم أن عزيراً ليس ابناً لله .

وجاء في القرآن قوله تعالى : (٢)

« وقَالَتِ الْيَهودُ عُزَيرٌ ابنُ اللهِ وقَالَتِ النّصارَى المَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قولُهم بأفْواهِهم يُضاهِئونَ قولَ الذينَ كفَرُوا من قَبْلُ قَاتَلهم اللهُ أنّى يؤْفَكون . اتّخذُوا أحبارهُم ورهْبانَهم أرباباً من دُونِ اللهِ والمسيح ابنَ مريمَ وما أمِرُوا إلاّ ليعبدُوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحَانَه عمـا يشركونَ » .

وإلا . . جئناك بقرآن مثله :

جاء في السيرة : (٣)

نفر من يهود يقولون للرسول أن ما جئت به لا يتسق وما في التوراة ، فقال صلى الله عليه وسلم بما معناه :

بل هو من عند الله وأنتم تعرفون ذلك . . قالوا : إن كان من عند الله فائتنا به مكتوباً من السماء نقرؤه وإلا جئناك بقرآن مثله . . فقال صلى الله عليه وسلم :

---

١ ـ ابن هشام ج ٢ ص ٢١٩

٢ ـ التوبة : الآية ٣٠ ـ ٣١

٣ ـ ابن هشام ج ٢ ص ٢٢٠

لو اجتمعت الإنس والجن ما جاءوا بمثله .
أما في القرآن فيقول الله تبارك وتعالى : (١)

« قلْ لئن اجتَمَعَت الإنسُ والْجِنُ علَى أنْ يأتُوا بمثْلِ هذَا الْقُرآنِ لا يأتُونَ بِمِثْلِه ولَو كَانَ بعضُهم لِبعْضٍ ظَهِيراً » .

هل تصف لنا الله : ؟

جاء في السيرة : (٢)

قال ابن إسحاق : أتى رهط من يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد ، هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله ، قال :

فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتُقِعَ لونه (٣) ثم ساوَرَهم (٤) غضباً لربه ؛ قال : فجاءه جبريل عليه السلام فسكّنه وجاءه بجواب ما سألوه عنه :

« قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدْ . اللهُ الصَّمدُ . لم يلدْ ولَم يُولَد ولمْ يكن لهُ كُفُوًا أحدٌ » . (٥)

قال : فلما تلاها عليهم قالوا : فصف لنا الله كيف ذراعه ؟ كيف عضده ؟ فغضب الرسول صلى الله عليه وسلم أشد من غضبه الأول ، وساورهم . فأتاه جبريل عليه السلام بجواب سألوه عنه بقول الله تعالى : (٦)

« وما قَدَرُوا اللهَ حقَّ قَدْرِهِ والأرضُ جَميعاً قَبضتُه يَومَ القيامَةِ والسّموات مطويّاتٌ بيَمِينِه سبحانَه وتعالى عما يشركونَ » .

١ ـ سورة الاسراء : الآية ٨٨ ٢ ـ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٢١
٣ ـ انتقع : تغير لونه ٤ ـ ساورهم : هم أن يبطش بهم
٥ ـ سورة الاخلاص : الآيات ١ ـ ٤ ٦ ـ الزمر : الآية : ٦٧

حديث المنافقين في المدينة

ظهور النفاق :

قال ابن هشام : قال ابن إسحاق : (١)

و نصبت عند ذلك أحبارُ يهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم العداوة بغياً وحسداً وضِغناً ؛ لما خصّ الله تعالى به العرب من أخذ رسوله صلى الله عليه وسلم منهم .

قال :

وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ممن كان عَسى (٢) على جاهليته ، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك ، والتكذيب بالبعث ، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره ، واجتماع قومهم عليه فظهروا بالإسلام واتخذوه جُنة من القتل ، ونافقوا في السر .

وكان هواهم مع اليهود لتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم وجحودهم الإسلام .

وكانت لهذا النفاق سمات وعلامات ؛ منها السخرية من الرسول، ومنها تمني خذلانه، ومنها موالاة عدوه ، ومنها التثبيط عن الجهاد ، ومنها الحديث بالسوء عن أهل بيته ، ومنها محاولة الوقيعة بين المؤمنين واستثارة حمية الجاهلية ، وما إلى ذلك مما كان

١ ــ السيرة لابن هشام ج ٢ ص ١٦٠
٢ ــ عسى : بقى على جاهليته

وحي السماء ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم ليكشفه أولا بأول كما سنرى بعد :

فمن هؤلاء المنافقين :

نبتل بن الحارث (١) ، وهو الذي قال : إنما محمد أُذُنٌ . . من حدثه شيئاً صدقه . وكان يأتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسمع منه ثم ينقل حديثه إلى المنافقين .

وعنه يقول القرآن : (٢)

« ومِنهُم الّذِينَ يُؤْذُونَ النّبيَّ ويقُولُونَ هو أُذُنٌ قلْ أُذُنُ خَيرٍ لَكُم يؤْمِنُ بالله ويؤْمِنُ للمُؤْمِنينَ ورحمةٌ للّذِينَ آمنُوا مِنكُم والّذِينَ يؤْذُونَ رسُولَ اللهِ لَهم عذَابٌ ألِيمٌ » .

ومن هؤلاء :

معتّب بنُ قشير الذي قال يوم أحد :

لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا .

وعنه يقول القرآن : (٣)

---

١ ـ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٦٨

٢ ـ سورة التوبة : الآية ٦١

٣ ـ آل عمران : الآية ١٥٤

« وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا ، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور » .

وهو الذي قال يوم الأحزاب : (١)

كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط .

وفيه يقول القرآن : (٢)

« وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً » .

قال ابن اسحاق : (٣)

ومنهم وديعة بن ثابت . . ممن بنى مسجد الضرار ، وهو الذي قال : إنما كنا نخوض ونلعب .

وعنه يقول القرآن : (٤)

---

١ ـ ابن هشام ج ٢ ص ١٦٩
٢ ـ الاحزاب : الآية ١٢
٣ ـ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٧٠
٤ ـ التوبة : ٦٥

« ولئن سألتهم ليقولُنَّ إنما كنا نخوضُ ونلعبُ قل أبالله ورسوله كنتم تَسْتَهْزِءُونَ » .

قال ابن إسحاق : (١)

ومنهم أوس بن فيظي : الذي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق : يا رسول الله إن بيوتنا عورة فأذن لنا لنرجع إليها .

وفيه يقول القرآن : (٢)

« وإذْ قالتْ طائفةٌ منهم يا أهل يثرب لا مُقَامَ لكم فارجعوا ويستأذِنُ فريقٌ منهم النبيَّ يقولُون إنّ بُيُوتَنَا عورَةٌ وما هي بعَوْرةٍ إنْ يُريدُونَ إلاّ فراراً . ولو دُخِلَتْ عليهم من أقطارها ثُم سُئِلُوا الفتنةَ لأتوها وما تلبثُوا بها إلا يسيراً . ولقد كانوا عاهدُوا الله من قبلُ لا يُوَلُّونَ الأدبَار وكانَ عهدُ الله مسئولاً . قل لَن ينفعَكُم الفِرارُ إنْ فَرَرْتُم من الموتِ أو القَتْل وإذًا لا تُمتَّعُونَ إلا قليلاً » .

ليخرجَنَّ الأعزّ منها الأزلّ :

قال ابن إسحاق : (٣)

---

١ ـ ابن هشام ج ٢ ص ١٧٠

٢ ـ الاحزاب : الآيات ١٣ ـ ١٦

٣ ـ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٧٣

وكان رأس المنافقين ـ عبد الله بن أبي بن سلول ـ وإليه يجتمعون ، وهو الذي قال في غزوة بني المصطلق : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

وفيه نزلت سورة المنافقين .

كما نزل فيه قوله تعالى : (١)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهلِ الكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجتُم لنخرُجَنَّ مَعَكُم ولا نُطِيعُ فِيكُم أحداً أبداً وإنْ قُوتِلْتُم لَنَنْصُرَنَّكُم واللهُ يشْهَدُ إنّهم لَكَاذِبُونَ » .

وفي هؤلاء المنافقين الذين حفلت السيرة النبوية بالكثير من ألوان نفاقهم يقول القرآن الكريم واصفاً خلائقهم : (٢)

« ومِنَ النّاسِ منْ يقُولُ آمنّا باللهِ وباليَوْمِ الآخِرِ ومَا هُم بمؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللهَ والّذِينَ آمنُوا ومَا يَخْدَعونَ إلاّ أنفُسَهم وما يَشْعُرونَ . في قُلُوبِهِم مَرَضٌ فزَادَهُم اللهُ مرضاً ولَهم عذَابٌ أليمٌ بما كانُوا يكْذِبونَ . وإذَا قيلَ لَهم لا تفْسِدوا في الأرضِ قَالُوا إنّما نَحنُ مصْلِحُون . ألا إنّهُم هُم المُفسِدُونَ ولكِن لاَ يشْعُرونَ .

---

(١) سورة الحشر : الآية ١١

(٢) سورة البقرة : الآيات ٨ ـ ١٦

«وإذَا قيلَ لَهمْ آمِنُوا كَمَا آمنَ النَّاسَ قَالُوا : أَنُؤْمِنُ كَمَا آمنَ السُّفَهاءُ أَلاَ إنّهم هُم السُّفَهاءُ ولَكِنْ لاَ يعْلَمونَ. وإذَا لَقُوا الّذِينَ آمنُوا قَالُوا آمنّا وإذَا خَلَوْا إلَى شَيَاطِينِهم قَالُوا إنّا معَكُم إنّما نَحنُ مسْتَهزِئُونَ . الله يستَهْزِيءُ بِهم ويمدُّهُم في طُغْيانِهم يعْمَهون . أولئكَ الّذِينَ اشتَروا الضَّلاَلةَ بالهُدى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارتُهم وما كَانُوا مهْتَدينَ».

كما أنزل الله تبارك وتعالى في المنافقين سورة بأكملها سماها باسمهم .

والحق أن القرآن الكريم قد عنى بتحديد ملامح هؤلاء المنافقين وسماتهم تحديداً رائعاً عميق الدلالة يمكن تلخيص بعض فيما يلي :

<u>أولا :</u> أبرز سمات المنافقين هي الكذب . . والكذب في مضمونه هو حالة تناقض بين ما يبطن المرء ، وبين ما يظهر ، فيعتقد أمراً ويبدي للناس أمراً آخر .

وقد أكد القرآن الكريم في غير موضع على هذه الصفة في خلائق المنافقين مشيراً إلى مدى الخطورة التي تقع على المجتمع من ذلك . .

وحسب النفاق والمنافقين سُبّة أنك لا تستطيع في تعاملك معهم أن تثق في صحة المقدمات والنتائج ، ومن ثم لا تستطيع

أن تضمن الاستقامة لأي أمر ، أو عمل ،أو اتفاق يكون أحد طرفيه واحداً ، أو جماعة من المنافقين .

ولذا كان مفتتح سورة المنافقين إعلاناً ضخماً عن صفة الكذب التي يتصف بها كل منافق وذلك في قوله تبارك وتعالى :(١)

« **إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون** » .

ونلاحظ هذا التأكيد الحاد بأن ،وباللام في قوله «لكاذبون». كما نلاحظ العدول عن ضمير الغائب إلى إعادة ذكرهم في قوله «إن المنافقين لكاذبون» بدل قوله مثلا «إنهم لكاذبون» وذلك لمزيد من التأكيد لتثبيت هذه الصفة التي يوصم بها هؤلاء .

أما في آيات سورة البقرة التي سبق ذكر بعضها فنرى البيان القرآني يعرض ما يشبه النماذج الدالة على أصالة الكذب في خُلق كل منافق ، وذلك في قوله تعالى : (٢)

« **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون** . » .

وفي القرآن غير هذا كثير من مواقف كذب المنافقين لا يتسع لذكرها المقام .

---

١ ـ المنافقون : الآية الاولى
٢ ـ البقرة : الآية ٨

ثانياً : أشار القرآن إلى ما يمكن به اعتبار النفاق مرضاً من أخطر أمراض النفوس تصاب به من طريقين :

أحداهما : طريق الحقد والحسد ، الذي هو سمة ضعف النفوس،والتواء الفطرة، وهو داء يعيش مع صاحبه العمر كله ولا خلاص منه إلا في نار جهنم . . إلا من رحم ربك فمنّ عليه بالشفاء .

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى في سورة البقرة : (١)

« في قُلُوبِهِمْ مرضٌ فَزَادَهُمْ اللهُ مرضاً ولهم عذابٌ أليمٌ بما كَانُوا يَكْذِبُونَ » .

وقوله تعالى في سورة المنافقين .(٢)

« ذلك بأنّهمْ آمَنُوا ثم كَفَرُوا فَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ فهم لاَ يَفْقَهُونَ » .

ثالثاً : إن المظهرية الخادعة بعض سمات المنافق ، ولذا فمن الملاحظ أن أعظم الناس نفاقاً أعظمهم قدرة على زخرف القول وإلباس الباطل بالحق ، والتظاهر بالإخلاص والمبالغة في ادعائه . وكثيراً ما ينجحون في ذلك،ويجوز خداعهم على ذوي الفطر

---

١ ـ البقرة : الآية ٩
٢ ـ المنافقون : الآية ٣

النظيفة التي ترى الناس من منظارها الصافي حتى تلدغ من الجحر .

وذلك ما أشار إليه القرآن في قوله تبارك وتعالى : (١)

« وإذَا رأيتَهُمْ تُعْجِبُكَ أجْسَامُهُمْ ، وإنْ يَقولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِم كأنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ . . » .

* * *

رابعاً : المنافق لا موقف له ولا مبدأ عنده ، وعينه على سيف المعزّ وذهبه ، أو هو كما قالوا : مع الريح ، يميل حيث تميل . .

وهذا ما قرره القرآن الكريم في مثل قوله تعالى :

« إنَّ المنافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وهو خَادِعُهُمْ وإذا قَامُوا إلى الصَّلاةِ قَامُوا كُسالى يُرَاءُونَ الناسَ ولا يذْكرونَ اللهَ إلاَّ قَليلاً . مُذَبْذَبينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إلى هَؤُلاَءِ وَلاَ إلى هَؤُلاَءِ ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبيلاً » . (٢)

وفي مواطن أخرى سجل القرآن عليهم هذا التذبذب بين الحق والباطل في مثل قوله تعالى : (٣)

« إنَّ الذين آمَنُوا ثم كَفَرُوا ثم آمَنُوا ثم كَفَرُوا ثم ازْدادوا كفراً لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً . بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بأنَّ لَهُمْ عَذَاباً أليماً » .

---

١ ـ المنافقون : الآية ٤
٢ ـ النساء : الآيتان ١٤٢ ـ ١٤٣
٣ ـ النساء : الآيتان ١٣٧ ـ ١٣٨

خامساً : من سمات المنافق ذلك الاستعلاء المظهري الذي يحاول به أن يغطي خواء النفس من يقين الإيمان بالله وما يصنعه من ثقة بالنفس يكفل لها الطمأنينة فتزداد تواضعاً، بينما يزداد المنافقون ادعاء وتظاهراً بأن لهم شأناً في الحياة . . فيصيبهم ذلك بضرب من عمى البصيرة .

هذا المعنى يشير إليه البيان القرآني في مثل قوله تعالى :(١)

« وإذَا قِيلَ لهم لاَ تُفْسِدُوا في الأرضِ قَالُوا إنّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ . ألاَ إنّهم هُمْ الْمُفْسِدُونَ ولكنْ لاَ يَشْعُرُونَ . وإذا قِيلَ لَهم آمنوا كما آمَنَ النّاسُ قَالُوا أنُؤْمِنُ كَمَا آمن السفهاءُ ألاَ إنهم هُمْ السفهاءُ ولَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ » .

وفي مثل قوله تعالى : (٢)

« وإذا قِيلَ لهم تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لكم رسولُ اللهِ لَوَّوْا رءوسَهُمْ ورأيتَهُمْ يصدُّونَ وهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ » .

ولقد ظهرت آثار هذا النفاق في مجتمع المدينة حيث كان وجود العنصر اليهودي من ناحية وبقية العناصر التي كانت تحلم بالرئاسة والزعامة قبيل ظهور الإسلام فلما ظهر الإسلام تحطمت

١ ــ البقرة الآيات من ١١ ــ ١٣ .

٢ ــ المنافقون الآية ٥ .

آمالها فبقيت تمضغ الحسد والضغينة على المسلمين عامة وعلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه خاصة .

وفي مواقف كثيرة سيأتي الحديث عنها كل في موضعه. كانت أخلاق المسلمين تظهر في شكل تصرفات معاكسة للمسيرة الناهضة المنتصرة لكتائب الإيمان .

فرأينا المنافقين ينخذلون بجماعاتهم يوم أحد ويكون لذلك من الأثر ما يكون ، ورأيناهم يحبون أن تشيع الفاحشة في المؤمنين ويصنعون حديثا ويبدأون فيه ويعيدون . ورأيناهم يطمعون في خير الدعوة المنتصرة فإذا أكرمهم الله بخلوا ومنعوا الزكاة . . ورأيناهم يوم الأحزاب، وفي ساعة العسرة، يبدو نفاقهم أوضح ما يكون . .

لكن من فضل الله أن أسبغ تأييده على رسوله، وكان جبريل عليه السلام يطلعه على المستور من أحوال المنافقين، فيعالج خلاتهم أولا بأول . ومن ثم لم يستطع سم النفاق أن يصل من جسم الدعوة المنصورة إلى شيء ، وارتدت في نحورهم كل السهام التي أرادوا تصويبها للمسلمين .

ولقد يرد في الخاطر . . كيف يكون للنّفاق مجال في مجتمع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حَيٌّ قائم بالناس ؟ ! !

ونقول . . إن النفاق مرض من أمراض النفس ينشأ أكثر ما ينشأ مقترناً بصفتين أساسيتين هما : صفة الجبن، وصفة الرضى

بالهوان ، وقد تكون الثانية وليدة الأولى ولذا في أي مجتمع تعيش فيه لا ترى منافقاً إلا الجبان العاجز عن إبداء رأيه وحمايتــه والدفاع عنه .

أما علاقة النفاق بالدين فهي علاقة تضاد ، لأن المنافق يفتقد الإيمان بربه والثقة به ، ولو آمن بربّه لما ضعف وما استكان وجَبُن ، وحمل نفسه على ممالأة الأقوياء .

ولو آمن المنافق بربّه لاستيقن أنه ما يصيبه من خير أو شر هو بعض ما قدّر له ، ولو اجتمع الناس على أن يضروه،أو ينفعوه ، ما بلغوا إلا ما أراد الله له .

لو آمن المنافق بربه لما نافق ولانحاز إلى صفوف المؤمنين يجاهد كما يجاهدون ويبتلى في الله كما يبتلون .

لكنه النفاق . . وحديثه يطول . . ولعنة الله على المنافقين في القديم والحديث فهم أصل كل بلاء .

* * *

أمر بني قينقاع :

جاء في كتب السيرة : (١)

أن الرسول صلى الله عليه وسلم – بعد غزوة بدر – قد جمعهم في سوقهم ثم قال لهم :

يا معشر يهود ، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ، وأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسلٌ تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم .

فقالوا : يا محمد ، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبتَ منهم فرصةً ، أما والله لئن حاربناك لتعلمَنّ أنا نحن الناس .

عن هذا الحديث جاء في القرآن قوله تعالى : (٢)

« قل للذين كفَروا ستُغلبُون وتحشَرُون إلى جهنّم وبِئْسَ المهادُ . قد كان لكم آية في فئتين الْتقَتَا فئةٌ تقاتلُ في سبيل الله وأخــرى كافِرةٌ يرونَهم مِثْلَيهم رأي العَيْن والله يؤيِّدُ

١ – انظر ابن هشام ج ٣ ص ٥٠ – ٥١ وابن كثير ج ٣ ص ٥ – ٦

٢ – آل عمران : ١٢ – ١٣

بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إنَّ في ذلِكَ لَعِبْرةً لأولي الأبْصَارِ » .

سرية عبد الله بن جحش :

جاء في السيرة : (١)

أن عبد الله بن جحش رضي الله عنه مضى بسريته حتى نزل بنخلة ، فمرت به عير لقريش تحمل زبيباً وأدَماً (٢) وتجارة لقريش . . وتشاور القوم أيتركونهم أم يقاتلونهم وذلك في آخر يوم من رجب . . ثم شجعوا أنفسهم وقاتلوهم . . وأقبل ابن جحش بالعير والأسيرين على الرسول صلى الله عليه وسلم فقال :

ما أمرتكم بقتالٍ في الشهر الحرام فوقّف العيرَ والأسيرينْ وأبى أن يأخذ شيئاً من ذلك . . وأسقط في أيدي القوم وأكثر الناس فيه .

وجاء في القرآن عن ذلك قوله تعالى : (٣)

« يسألُونَكَ عن الشّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فيه ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عنْ سَبِيلِ الله وكُفْرٌ بِهِ والْمَسْجِدِ الحرَامِ وإخْراجُ أهْلِهِ منه أكبرُ عندَ الله والفِتْنةُ أكبَرُ من القَتْلِ ولا يزَالُونَ يُقَاتِلُونَكم حتى يردُّوكُم عنْ دِينِكُمْ إنْ اسْتَطَاعُوا . . . » الآية .

---

١ ـ ابن هشام ج ٢ ص ٢٥٢ وانظر سيرة ابن كثير ج ٢ ص ٣٦٦
٢ ـ الادم : الجلد
٣ ـ البقرة : الآية ٢١٧

بدر الكبرى :

في كتب السيرة (١) تفصيل كامل لأحداث هذه الغزوة الكبرى التي فرقت بين الحق والباطل وكسرت شوكة المشركين، وآذنت بظهور الإسلام وقيام دولته وعزة سلطانها .

وقد بسط لها ابن هشام أكثر من خمس وسبعين صفحة ، كما بسط لها ابن كثير ثلاثين ومائة صفحة لا مجال لتناولها هنا .

بيد أننا اتساقاً مع طبيعة الموضوع ومع الأسلوب الذي اتبعناه في هذا البحث ، سنقف فقط أمام الوقائع التى وردت في السيرة وورد لها نظير في القرآن الكريم .

يعدكم الله إحدى الطائفتين :

جاء في السيرة (٢) « ٢ : ٢٥٦ » :

لما سمع الرسول صلى الله عليه وسلم بقدوم عير لقريش يقودها أبو سفيان ، انتدب المسلمين إليهم وقال :

هذه عيرُ قريش اخرجوا إليها لعلّ الله يُنْفِلكُمُوها (٣)

---

١ ـ ابن هشام ج ٢ ص ٥٧ ـ ٣٤٧ وانظر ابن كثير ج ٢ ص ٣٨٠ ـ ٥١٤

٢ ـ ابن هشام ج ٢ ص ٢٥٧ وانظر سيرة ابن كثير ج ٢ ص ٣٨٠

٣ ـ يجعلها لكم غنيمة

فانتدب الناسُ ، فخف بعضهم وثقل بعضٌ ، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلْقى حربا .

وجاء في القرآن الكريم قوله تعالى : (١)

« وإذْ يَعِدُكُم الله إحدَى الطّائِفَتين أنها لكُم وتَوَدُّون أنّ غَير ذَاتِ الشّوكَة تكون لَكُم ويريدُ الله أنْ يُحِقّ الحقّ بكلماتِه ويقطعَ دابرَ الكافرينَ » .

مقومات النصر :

الثبات ، وذكر الله ، والطاعة ، وعدم التنازع ، وإخلاص النية لله .

وجاء في السيرة : (٢)

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أتاه الخبر بمصير قريش ليمنعوا عيرهم استشار الناس فتكلم أبو بكر ، والمقدادُ بن عمرو وسعدُ بن معاذ وكلُّهم أعطى البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على القتال معه والثبات دونه حتّى يقضي الله أمره (٣) .

فَسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال سيروا وأبشروا .

---

١ ـ الانفال : الآية ٧

٢ ـ ابن هشام ج ٢ ص ٢٦٦ وابن كثير ج ٢ ص ٣٩١ ـ ٣٩٢

٣ ـ انظر تفصيل ما قيل وخاصة كلمتى المقداد بن عمرو وسعدبنمعاذ رضى الله عنهما فى ابن كثير ج ٢ ص ٣٩٤ وابن هشام ج ٢ ص ٢٦٧ .

جاء عن ذلك في القرآن قوله تعالى : (١)

« يا أيُّها الّذِينَ آمنُوا إذَا لقِيتُم فِئة فاثْبتُوا واذْكُروا اللهَ كثيراً لعلّكم تفْلِحُونَ . وأطيعُوا الله ورسُولَه ولا تنَازعُوا فتَفْشَلُوا وتذْهَبَ رِيحكُم واصْبرُوا إنَّ اللهَ معَ الصَّابِرِينَ . ولا تَكُونُوا كالّذِينَ خرَجُوا من ديَارهمْ بطراً ورِئَاء النّاس ويصدُّون عن سبيل الله واللهُ بما يعْملونَ محيطٌ » .

وقوله تعالى : (٢)

« يا أيُّها الّذِينَ آمنُوا إذَا لقيتُم الذين كفرُوا زَحْفاً فلا تولّوهُمْ الأدبارَ . ومَنْ يوَلِّهم يَومئذٍ دُبُرَهُ إلا متحرِّفاً لقتالٍ أو متحيّزاً إلى فِئةٍ فقدْ بَاءَ بغضَبٍ مِنَ الله ومأواهُ جهنمُ وبئس المصيرُ » .

مواقع الفريقين يوم بدر :

جاء في السيرة : (٣)

أن المسلمين كانوا على بدر بالعدوة القريبة من المدينة ، وكان المشركون بالناحية الأخرى تجاه مكة ، وكانت العير التي خرج المسلمون لأخذها مما يلي الفريقين من ناحية الساحل .

وجاء من هذا في القرآن قوله تعالى : (٤)

---

١ ــ الانفال : الآية ٤٥ ــ ٤٧ . ٢ ــ لانفال : ١٥ ــ ١٦

٣ ــ ابن هشام ج ٢ ص ٢٧٢ ــ ٢٧٣ وابن كثير ٢/٤٠٠ ــ ٤٠٢

٤ ــ الانفال : الآية ٤٢

« إذ أنتُم بِالعُدْوَةِ الدُّنيَا وَهُم بالعُدْوةِ القُصْوَى والرَّكبُ أسفلَ منكُم ولو تواعدْتُمْ لاختَلفتُم في الميعادِ ولكنْ ليقْضي اللهُ أمراً كانَ مفعُولا.ليهْلكَ مَنْ هَلكَ عن بيّنة ويَحْيَى مَنْ حيَّ عن بيّنةِ وإنّ اللهَ لسميعٌ عليمٌ » .

الحكمة الربانية في يوم بدر :

جاء في كتب السيرة : (١)

أن المسلمين لما خرجوا للعير لم يكونوا طلاب حرب بقدر ما كانوا طلاب أنفال وغنيمة .

ولكن أراد الله أمراً آخر ، ولذا أرى الله رسوله صلى الله عليه وسلم المشركين في المنام قلة ليشجعه على قتالهم . . فلما التقى الجمعان أظهرهم كذلك في أعين المسلمين ليشجعهم على قتالهم ويصل أمر الله إلى غايته .

عن هذه الحالة جاء في القرآن قوله تعالى : (٢)

« وَلَوْ توَاعدْتُم لاخْتَلَفْتُم في الميعادِ ولَكِن ليقْضِيَ اللهُ أمراًكان مفعولاً ليهلِكَ من هَلَكَ عن بيِّنةٍ ويَحيى من

١ ـ انظر ابن هشام ٢ ـ ٣٧٠ وما بعدها .وابن كثير ج ٢ ص ٤٠٦

٢ ـ الانفال : ٤٢ ـ ٤٤ .

حَيَّ عن بيِّنة وإنَّ اللهَ لسميعٌ عليمٌ . إذ يريكَهُم الله في مَنامِكَ قليلاً ولَوْ أراكَهُم كثيراً لفشِلْتم ولتنازعتُم في الأمرِ ولكنَّ الله سلّم ، إنّه عليمٌ بذَاتِ الصُّدورِ . وإذ يُريكموهم إذِ التقيتُم في أعينكم قليلاً ويقلّلكم في أعْينِهم ليقضِيَ اللهُ أمراً كانَ مفعُولاً وإلى الله تُرجَعُ الأمورُ » .

وما رميت إذ رميت :

جاء في السيرة : (١) « ٢ : ٢٨٠ » :

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل قريشاً بها ثم قال :

شَاهَت الوجوه ، ثم نفخهم بها وقال لأصحابه : شُدُّوا فكانت الهزيمة .

وجاء عن ذلك في القرآن قوله تعالى : (٢)

« فلَمْ تقتلُوهم ولكنّ الله قتلَهُم ومَا رميْتَ إذْ رميْتَ ولكنَّ الله رمَى وَليُبْلِيَ المؤْمنِينَ منه بلاءً حسناً إن الله سميعٌ عليمٌ » .

شهود الملائكة بدراً :

جاء في السيرة : (٣)

---

١ ـ ابن هشام ج ٢ ص ٢٨٠ وابن كثير ٢ ـ ٤٢٠ ـ ٤٣٥

٢ ـ الانفال : الآية ١٧

٣ ـ إبن هشام ٢/٢٧٩

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عدل الصفوف ورجع إلى العريش يناشد ربه النصر بدعائه المشهور :

« اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد . . ثم خفق خفقة وهو في العريش ، ثم انتبه وقال لأبي بكر وكان معه :

أَبْشِر أتاك نصرُ الله هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده ، على ثناياه النقع . .

وفي السيرة أيضاً : (١)

أن اثنين من المشركين دنت منهما سحابة سمعوا منها حمحمة الخيل وقائلا يقول : أقدم حيزوم(٢) . . الخ .

وجاء عن هذا في القرآن قوله تعالى : (٣)

« إذ يُوحي ربُّك إلى الملائِكَة أنّي معكُم فثبّتُوا الّذِينَ آمنُوا سألقِي في قُلُوبِ الّذِينَ كَفرُوا الرُّعبَ فاضْرِبُوا فوقَ الأعنَاقِ واضْرِبُوا منهُم كلَّ بنَانٍ » .

وقوله تعالى : (٤)

« ولقد نصركُم اللهُ ببدْرٍ وأنتُم أذِلّةٌ فاتّقُوا الله لعلّكم تشكُرونَ . إذْ تقول للمؤمِنينَ ألَنْ يكفِيكُم أن يمُدَّكُم

---

١ ـ ابن هشام ج ٢ ص ٢٨٥

٢ ـ حيزوم اسم فرس جبريل عليه السلام كما ورد ٠

٣ ـ الانفـــال آية ١٢ ٠ ٤ ـ آل عمران ١٢٣ ـ ١٢٦ ٠

ربّكُم بثلاثةِ آلافٍ من الملائكةِ مُنْزَلِينَ . بَلَى إنْ تصبرُوا وتتّقُوا ويأتوكُم من فورِهمْ هذا يُمددْكم ربّكم بخمسةِ آلاف من الملائكةِ مُسوِّمِينَ . وما جَعلَه اللهُ إلا بُشرى لكُم ولتطمئِنَّ قلُوبكُم به وما النّصرُ إلاّ من عندِ اللهِ العزيزِ الحكيم » .

حديث الغنائم :

وثمة أمور أخرى عالجها البيان القرآني بعد غزوة بدر الكبرى ، ووضع لها الأسس الدائمة للتعامل بها في المستقبل ، كما حدث مثلا في أمر الغنائم حيث نزل فيه قوله تعالى : (١)

« يَسألُونكَ عن الأنفالِ قلْ الأنفالُ لله والرّسولِ فاتّقُوا اللهَ وأَصْلحُوا ذَاتَ بَيْنكُم وأطيعُوا اللهَ ورسوله إن كنتم مؤمِنينَ » .

ثم قوله تعالى : (٢)

« واعلَموا أنّما غنِمتُم من شيء فأنّ لله خُمُسَهُ وللرّسُولِ ولذِي القُربى واليتامَى والمساكينِ وابْنِ السّبيلِ إنْ كنتُم آمنْتُم باللهِ وما أنزلْنا على عبْدِنا يومَ الفُرقانِ يومَ الْتقَى الجمعَانِ واللهُ على كلِّ شيء قديرٌ » .

١ ـ الانفال : الآية الاولى
٢ ـ الانفال : الآية ٤١

موضوع الأسرى يوم بدر :

جاء في السيرة : (١)

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استشار أصحابه في الأسارى يوم بدر فقال :

« إنّ الله قد أمكَنَكُم منهم » .

قال : فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : « يارسول الله ؛ اضربْ أعناقَهم » قال : فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم .

قال : ثم عاد النبي صلى الله عليه وسلم فقال للناس مثل ذلك ، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال :

يا رسول الله ؛ نرى أن تعفو عنهم وتقبل منهم الفداء .

قال : فذهب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان فيه من الغمّ ، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء .

* * *

عن هذا الحديث جاء قوله تعالى : (٢)

---

١ ـ ابن كثير ج ٢ ص ٤٥٧ وما بعدها .

٢ ـ سورة الانفال : الآية ٦٧ ـ ٧١

« ما كَانَ لنَبِي أنْ يكونَ لَه أسْرى حتّى يُثْخِنَ في الأرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنيا واللهُ يريدُ الآخرةَ والله عزيزٌ حكيمٌ . لولا كِتابٌ من الله سَبَق لمَسّكُم فيمَا أخذتُم عذابٌ عظيمٌ . فكُلوا ممّا غنِمتُم حَلالاً طَيّباً واتّقُوا الله إنّ اللهَ غفُورٌ رحيمٌ . يا أيُّها النبيُّ قلْ لمنْ في أيدِيكُم مِنَ الأسْرَى إنْ يعلَمِ اللهُ في قلُوبكم خيراً يؤتِكُمْ خيراً مِمّا أُخِذَ منكم ويغفِرْ لكُم والله غفورٌ رحيمٌ . وإن يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فقدْ خَانُوا الله من قَبْلُ فأمكَنَ منْهم والله عليمٌ حكيمٌ » .

غزوة أحد :

جاء في السيرة : (١) « ٣ : ٦٤ – ٦٨ » :

قال ابن اسحاق : فاجتمعت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرجت بحدها وحديدها وأحابيشها ومن تابعها .. وخرجوا معهم بالظُّعُن التماس الحفيظة وألا يفرُّوا . . وشاور الرسول صلى الله عليه وسلم القوم ، ولم يكن به رغبة للحرب ، ولكن لم يزل الناس به حتّى دخل بيته ولبس لامته فلما خرج عليهم قالوا يا رسول الله :

استكر هناك ولم يكن ذلك لنا فإن شئت فاقعد صلى الله عليك.

---

١ – ابن هشام ج ٣ ص ٦٤ – ٦٨ وابن كثير ج ٣ ص ١٨ – ٢١

فقال صلوات الله عليه ما ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل .

قال : ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بالشعب من أحد ، فجعل ظهره وعسكره إلى أُحد وقال: لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال .

وأمّر على الرماة عبد الله بن جبير أخا بني عمرو بن عوف وقال له :

إنْضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا . إن كانت لنا أو علينا ، فاثبت مكانك ، لا نؤتَيَنَّ من قبلك .

عن هذا يقول القرآن الكريم : (١)

« وإذْ غَدَوْتَ من أهلِكَ تُبوِّيءُ المؤمنينَ مقَاعدَ للْقتال والله سميعٌ عليمٌ . إذْ همّتْ طائفتانِ منكُمْ أن تَفْشَلاَ والله وَليُّهما وعلى اللهِ فَليتوكّل المؤمنونَ » .

انخذال المنافقين :

في السيرة : (٢) « ٣ : ٦٨ » قال ابن اسحاق :

« فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ألفٍ من أصحابه حتى إذا كان بالشوط بين المدينة وأُحد انخذَل عنه عبد الله بن

---

١ ـ آل عمران ١٢١ ـ ١٢٢

٢ ـ ابن هشام ج ٣ ص ٦٨ وابن كثير ج ٣ ص ٢١ وما بعدها

أُبَيّ بن سلول بثلث الناس وقال : أطاعهم وعصاني ، ومـــا ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس» .

عن هذا جاء في القرآن قوله تعالى : (١)

« وليعلَمَ الّذينَ نافقُوا وقيلَ لَهم تعالَوْا قَاتِلُوا في سَبيلِ اللهِ أو ادْفَعُوا قالُوا لو نعلَمُ قِتالاً لاتّبعناكُم هم للكُفْرِ يومئذٍ أقربُ منهُم للإيمانِ يقولُون بأفواهِهم ما ليسَ في قلُوبهم واللهُ أعلَمُ بما يكْتُمونَ . الّذينَ قَالُوا لإخوانهم وقَعَدُوا لو أطاعونَا ما قُتِلُوا قلْ فادْرَءُوا عن أنْفُسِكم الموْتَ إن كنْتُم صادِقِينَ » .

وفي السيرة كذلك : (٢)

قال ابن هشام :

إن بني سلمة بن جشم من الخزرج ، وبني حارثة بن النبت من الأوس وهما الجناحان همّا أن يفشلا ، وكان ذلك منهما عن ضعف ووهن .

عن هذا جاء في القرآن قوله تعالى : (٣)

« إذْ همّت طائِفتَانِ منكُم أن تفشَلاَ واللهُ وليُّهما وعلَى اللهِ فلْيتوكّلِ المؤمِنُون ».

---

١ ـ آل عمران ١٦٧ ـ ١٦٨   ٣ ـ آل عمران ١٢٢

٢ ـ ابن هشام ج ٢ ص ١١٢ وابن كثير ج ٣

ذكر ما أصاب المسلمين وتعزيتهم عنه :

قال ابن إسحاق : (١) وهو يشرح بعض ما نزل في أحد من القرآن :

ثم استقبل ذكر المصيبة التي نزلت بهم والبلاء الذي أصابهم والتمحيص لما كان فيهم ، واتخاذ الشهداء منهم . فقال تعزية لهم وتعريفاً لهم فيما صنعوا وفيما هو صانع بهم : (٢)

« ولا تَهِنُوا ولا تحزَنُوا وأنتُم الأعلَوْنَ إن كنتُم مؤمنينَ . إنْ يمسَسْكُم قرحٌ فقدْ مسَّ القومَ قرحٌ مثلُه وتلكَ الأيامُ نداولُها بينَ النّاسِ وليعلَمَ الله الّذينَ آمنُوا ويتّخِذَ منكُم شهداءَ واللهُ لا يُحِبُّ الظّالمينَ . وليمحِّصَ الله الّذينَ آمنُوا ويَمْحَقَ الكافرينَ . أم حسِبتُم أن تدْخُلوا الجنّةَ ولمّا يعلَمِ اللهُ الذينَ جاهدُوا منكُمْ ويعلَمَ الصّابرينَ . ولقدْ كنتُم تمنّونَ الموْتَ من قبلِ أنْ تلْقوْهُ فقدْ رأيتُمُوه وأنتُم تَنظُرونَ » .

ذكر شجاعة المجاهدين :

(٣) « وكأيِّن منْ نَبِي قاتَل معَهُ ربِّيُونَ كثيرٌ فمَا وهَنُوا لِمَا أَصابَهُم في سَبيلِ الله وما ضَعفُوا وما اسْتكانُوا

---

١ ـ سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١١٦ وابن كثير
٢ ـ آل عمران : الآيات ١٣٩ ـ ١٤٣
٣ ـ آل عمران : ١٤٦ ـ ١٤٨

والله يحبُّ الصَّابرينَ . وما كانَ قولَهم إلاّ أن قالُوا ربّنا اغفِر لنَا ذُنُوبنَا وإسْرَافنَا في أَمرِنَا وثبّت أقدامنَا وانصُرنا علَى القَومِ الكافِرينَ . فآتاهُم الله ثَوابَ الدّنيا وحُسنَ ثَوابِ الآخِرَةِ والله يُحِبُّ المُحْسِنِينَ » .

التحذير من طاعة الكفار والربط على القلوب :

(١) « يا أيُّها الّذِينَ آمنُوا إنْ تُطِيعُوا الّذِينَ كفَرُوا يردُّوكُم علَى أَعقابِكُمْ فتنقَلِبُوا خَاسِرينَ . بَل اللهُ مولاكُم وهوَ خيرُ النّاصِرِينَ . سنُلْقِي في قلُوبِ الّذِينَ كفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أشركُوا باللهِ ما لمْ ينزّل به سلْطاناً ومأواهُم النارُ وبِئْسَ مثْوى الظّالمينَ » .

التذكير بصدق وعد الله وتحميل المخالفين تبعة الهزيمة :

(٢) « ولَقدْ صدَقكُم الله وعدَه إذْ تحسُّونَهم بإذْنِه ، حتّى إذَا فشلتُم وتنَازَعتُم في الأمرِ ، وعصيتُم منْ بعد ما أَراكُم ما تحبُّون منكم منْ يُرِيدُ الدُّنيَا ومِنكُم منْ يُرِيدُ الآخِرةَ ثُم صرَفَكُم عنهُم ليبْتَلِيكُم ولقدْ عفَا عنكُم والله ذُو فضْلٍ علَى المؤْمِنينَ » .

---

١ ـ آل عمران : ١٤٩ ـ ١٥١

٢ ـ آل عمران : الآية ١٥٢

تأنيب الفارين عن القتال :

(١) « إذْ تُصعِدُونَ ولا تلْوُون علَى أحَدٍ والرّسولُ يدْعُوكُم في أُخراَكُم فأثَابكُم غماً بغَم لِكَيلاَ تحْزَنُوا علَى ما فَاتكُم ولا مَا أصابَكُم واللهُ خبيرٌ بما تَعملُون » .

وقوله تعالى : (٢)

« إن الّذين تولّوا منكُم يومَ الْتَقَى الجمعَانِ إنّما استزلّهم الشيطانُ ببعض ما كَسَبُوا ولقَدْ عفَا اللهُ عنهُم إن اللهَ غفورٌ حليمٌ » .

المؤمنون والمنافقون في ساعة العسرة :

(٣) « ثم أنزلَ عليكُم من بعْدِ الغَمِّ أمنَةً نُعاساً يغشَى طائِفةً منكُم وطائِفَةٌ قد أهمتهم أنفسهُم يظنُّونَ بالله غيرَ الحقِّ ظنّ الجاهليّةِ يقولُونَ هلْ لنَا من الأمرِ من شيء قلْ إنّ الأمرَ كلّه لله يخفُونَ في أنفُسِهم ما لاَ يبدُونَ لَكَ يقولُونَ لو كَانَ لنَا من الأمرِ شيءٌ ما قتِلنا ها هُنا قلْ لو كنتُم في بيُوتِكُم لبرَزَ الّذِين كُتب عليهِم القَتلُ إلى مضَاجِعهم وليبْتَلِي اللهُ ما في صدُورِكم وليمحِّصَ ما في قلُوبِكم والله علِيمٌ بذَاتِ الصُّدورِ » .

---

١ ـ آل عمران : الآية ١٥٣
٢ ـ آل عمران : ١٥٤
٣ ـ آل عمران : ١٥٦ ـ ١٥٨

أتخافون الموت في سبيل الله ؟

(١) « يا أيها الّذينَ آمنُوا لا تكُونُوا كالّذين كفَرُوا وقَالُوا لإخوَانِهم إذَا ضَرَبُوا في الأرضِ أو كانُوا غُزًّى لو كانُوا عندَنَا ما ماتُوا وما قُتِلُوا ليجْعلَ اللهُ ذلِك حسرةً في قلُوبهم واللهُ يُحْيِي ويُمِيتُ والله بما تَعملُونَ بَصيرٌ . ولئِن قُتِلتُم في سَبيلِ الله أو مُتُّم لمغفِرةٌ من اللهِ ورحمةٌ خيرٌ مما يجْمعونَ . ولئِن مُتُّم أوْ قُتلْتُم لإلَى اللهِ تُحشرونَ » .

حديث عن المصيبة ـ سببها والحكمة فيها :

(٢) « أوَلَمّا أصابتكُم مصيبةٌ قد أصبتُم مثلَيْها قلْتُم أنّى هذا قلْ هوَ منْ عندِ أنفسِكُم إنّ الله علَى كلّ شيءٍ قديرٌ . ولِيعْلَم الّذِينَ نَافقُوا وقيلَ لَهُمْ تعالَوْا قَاتِلُوا في سَبيلِ الله أو ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نعلَمُ قِتالاً لاتّبعناكُم همْ للكُفْرِ يومَئذٍ أقربُ منهُم للإيمَانِ يقولُونَ بأفواهِهِم ما لَيْسَ في قلُوبِهِم واللهُ أعلَمُ بما يكتمُونَ . الّذينَ قالُوا لإخوانِهم وقَعدُوا لو أطاعونَا ما قُتِلوا قلْ فادْرءُوا عن أنفُسِكم الموتَ إن كنتُم صَادِقينَ » .

---

١ ـ آل عمران ـ ٥٥٤

٢ ـ آل عمران : ١٦٥ ـ ١٦٨

مصير الشهداء :

جاء في السيرة : (١)

روى ابن اسحاق بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لما أُصيب إخوانكم بأُحدٍ جعل الله أرواحهم في أجواف طير خُضر ، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قَناديلَ من ذَهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم ، قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا ، لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب . . فقال الله تعالى فأنا أبلغهم عنكم .

وفي القرآن يأتي هذا البلاغ في قوله تعالى : (٢)

« ولاَ تحسبَنَّ الّذِينَ قُتِلُوا في سَبيلِ الله أمواتاً بلْ أحياءٌ عندَ ربِّهمْ يُرزَقُونَ . فَرِحينَ بمَا آتاهُم الله من فَضلِه ويستَبْشرون بالّذِينَ لَم يلْحَقُوا بِهِم مِن خلْفِهِم ألاَّ خوفٌ عليهم ولاَ هُم يحزَنُونَ . يستَبْشرونَ بنعْمةٍ منَ الله وفضلٍ وأن الله لا يُضِيعُ أجرَ المؤمِنينَ » .

١ ــ ابن هشام ج ٢ ص ١٢٦ وابن كثير ج ٣ ص ٨٥ وما بعدها
٢ ــ آل عمران : ١٦٩ ــ ١٧١

الخروج إلى حمراء الأسد :

قال ابن اسحاق : (٣)

فلما كان الغد (غداةَ أُحد) لست عشرة ليلة مضت من شوال أَذّن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس بطلب العدوّ ، وأذّن مؤذنه ألاَ يخرجن معنا أحدٌ إلا أحَدٌ حضر يومنا بالأمس .

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتّى انتهى إلى حمراء الأسد وهي من المدينة على ثمانية أميال واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

جاء عن هذا في القرآن قوله تعالى : (٤)

« الّذِينَ استجَابُوا للهِ والرَّسولِ من بعْد ما أَصابَهُم القرحُ لِلّذين أحسنُوا منهُم واتّقوْا أَجرٌ عظِيمٌ . الّذِينَ قالَ لهم النّاسُ إنّ النّاسَ قد جمعوا لكُم فاخشوْهُم فزادَهم إيماناً وقالُوا حسبُنا اللهُ ونِعم الوكيلُ . فانقلَبوا بنعمَةٍ منَ الله وفضلٍ لم يمسَسْهم سوءٌ واتّبعوا رِضوانَ الله واللهُ ذُو فضْلٍ عظِيمٌ . إنمَا ذلِكُم الشّيطانُ يخوِّف أولياءهُ فلا تخافُوهُم وخافُونِ إن كنتُم مؤُمنينَ » .

---

١ ـ ابن كثير ج ٣ ص ٩٧ وابن هشام ج ٣ ص ١٠٧

٢ ـ آل عمران ١٧٢ ـ ١٧٥ .

سرية الرجيع :

في كتب السيرة (١) تفصيل كثير عن حديث يوم الرجيع ، وعن الغدر المخزي من ذلك الرهط من عضل والقارة الذين غدروا بالنفر الذين بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم فقتلوا مرثداً ، وابن البكير ، وعاصماً ، وزيد بن الدثنة ، وخبيب ابن عدي .

وكان للغدر الذي وقع بهذه السرية أثره على المشركين والمنافقين الذين قالوا :

« يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا (هكذا) لا هم قعدوا في أهليهم ولا هم أدوا رسالة صاحبهم » .

عن موقف هؤلاء المنافقين وشماتتهم بأصحاب الرجيع يقول القرآن في قوله تعالى : (٢)

« ومِنَ النّاسِ مَنْ يُعجِبُكَ قولُه في الحَياةِ الدُّنيا ويُشْهِدُ اللهَ علَى ما فِي قلْبِه وهُو أَلَدُّ الخِصَامِ . وإذَا تولّى سعَى في الأرضِ ليُفْسِدَ فيها ويُهْلِكَ الحرْثَ والنّسلَ واللهُ لا يحِبُّ الفَسادَ . وإذَا قِيلَ له اتّقِ اللهَ أخذَتهُ العِزَّةُ بالإثْمِ فحسبُه جهنّم ولَبِئْس المِهَاد » .

---

١ ـ ابن هشام ج ٣ ص ١٨٧ وما بعدها وفى ابن كثير ج ٣ ص ١٢٣ ـ ١٣٢

٢ ـ البقرة : الآية ٢٠٤ ـ ٢٠٦

وعن شهداء الرجيع من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم يقول القرآن : (١)

« ومِنَ النّاسِ منْ يَشْرِي نفْسَه ابْتِغاء مرْضَاةِ الله والله رءوفٌ بالعِبَاد » .

إجلاء بني النضير :

قال ابن إسحاق في السيرة ما خلاصته : **(٢)**

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير يستعينهم في دية رجلين قتلهما عمرو بن أمية الضمري ، فلما أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أظهروا التودد له ، وقالوا : نعينك يا أبا القاسم بما أحببت . .

ثم خلا بعضهم إلى بعض ورأوها فرصة سانحة للتخلص من الرسول حيث يعلو أحدهم الجدار الذي كان يجلس إليه ثم يلقي عليه صخرة قاتلة .

هكذا تآمروا ولكن الله بعث إليه جبريل عليه السلام يخبره بما عزم عليه القوم فمضى عنهم .

---

١ ــ البقرة : الآية ٢٠٧

٢ ــ ابن هشام ج ٣ ص ١٩٩ وابن كثير ج ٣ ص ١٢٣ ــ ١٤٥ .

وعن حديث التآمر يقول القرآن : (١)

« وإذْ يمكُر بكَ الّذِينَ كَفرُوا ليُثْبتُوك أو يقتُلوكَ أو يُخْرِجُوكَ ويمكرُونَ ويمكرُ اللهُ واللهُ خير الماكرِينَ » .

وعن بني النضير وما تم من إجلائهم يقول القرآن في سورة الحشر (٢) :

« هُوَ الّذي أخرجَ الّذِينَ كفرُوا من أهلِ الكتابِ منْ ديارِهِمْ لأوّلِ الحَشْر ما ظنَنْتُم أن يخْرُجُوا وظَنُّوا أنهُمْ مانِعتُهم حصُونهم مِنَ الله فأتاهُم الله منْ حيثُ لمْ يحتَسِبُوا وقذَفَ في قلُوبهم الرُّعبَ يُخْرِبُون بيوتَهم بأيدِيهِمْ وأيدِي المؤمِنينَ فاعْتَبِرُوا يا أُولي الأبصَارِ » .

ولولاَ أن كَتب اللهُ عليهِمُ الجلاءَ لعذّبهُم في الدُّنيا ولَهُم في الآخِرَةِ عذابُ النّارِ .

« ذلِكَ بأنّهم شاقُّوا اللهَ ورسولَهُ ومن يُشاقّ اللهَ فإنّ الله شديدُ العِقابِ » .

وجاء في السيرة : (٣)

أن القوم لما حاصرهم الرسول امتنعوا في حصونهم فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقطع نخيلهم فقالوا : كنت تنهانا عن الفساد وتفعله .

---

١ ـ الانفال : الآية ٣٠

٢ ـ الحشر : الآيات ٢ ـ ٤

٣ ـ ابن هشام ج ٣ ص ٢٠٠

عن هذا يقول القرآن : (١)

« ما قطعتُم من لينَةٍ أو تركتُمُوها قائِمةً على أصولِهَا فبإذْنِ الله وليُخزِيَ الفَاسِقينَ » .

تحريض المنافقين لهم على المقاومة :

قال ابن إسحاق : (٢)

وكان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عدو الله عبدالله ابن أُبَيّ بن سلول وآخرون قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتُوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم إذا قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم . . فتربصوا ذلك منهم فلم يفعلوا وقذف الله في قلوبهم الرعب .

عن هذا يقول القرآن : (٣)

« أَلَمْ تر إلَى الَّذِينَ نافَقُوا يقولُونَ لإخوَانِهم الَّذِينَ كَفَرُوا من أهْلِ الكِتَابِ لئِنْ أُخْرِجتُم لنخرُجَنَّ معكُم ولا نُطِيعُ فيكُم أحداً أبداً وإن قُوتِلتُم لننصُرنّكُم واللهُ يشْهدُ إنّهم لكاذِبُونَ . لئِنْ أُخرِجُوا لا يَخْرجُونَ معهم ولئِنْ قُوتِلُوا لا ينصرُونَهم ولئِنْ نصروهُم ليولُّنَّ الأدبارَ ثم لا يُنصرُونَ . لأنتُم أشدُّ رهبةً في صدورِهِم مِنْ الله ذلِك بأنهم قومٌ لا يفقَهُونَ » .

---

١ ـ الحشر : الاية ٥

٢ ـ ابن هشام ج ٢ ص ٢٠٠

٣ ـ الحشر : الآيات ١١ ـ ١٣

فيءُ بلا قتال :

قال ابن اسحاق (١) « ٢٠١/٣ » :

وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة (السلاح) ففعل ، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل . فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام .

عن هذا يقول القرآن : (٢)

« وما أفاءَ اللهُ على رسُولِه منهُم فما أوجفتُم علَيهِ من خَيلٍ ولا رِكَابٍ ولكنَّ اللهَ يسلِّطُ رسُلَه علَى منْ يشاء واللهُ على كلِّ شيء قديرٌ » .

تقسيم فيئهم على المهاجرين دون الأنصار :

قال ابن اسحاق : (٣)

وخلوا الأموال فكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة يضعها حيث يشاء فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار . إلا أن سهل بن أبي حنيف ، وأبا دجانة ذكرا فقراً فأعطاهما صلى الله عليه وسلم .

---

١ ـ ابن هشام ج ٣ ص ٢٠١

٢ ـ الحشر : الآية ٦

٣ ـ ابن هشام ج ٣ ص ٢٠٢

عن هذا جاء في القرآن : (١)

« ما أفاءَ الله علَى رسُولِه من أَهل القُرى فللَه ولِلرَّسُولِ ولِذِي القُربى واليتَامى والمسَاكين وابْنِ السّبيلِ كيْ لاَ يكُونَ دُولَةً بين الأغنِياءِ منكُم وما آتاكُم الرَّسولُ فخذُوه وما نَهاكم عنهُ فانتَهُوا واتّقوا الله إنّ الله شديدُ العِقَاب . للفُقَراء المُهاجرِينَ الّذين أُخرجوا من دِيَارهم وأَموالِهم يبتغُون فضلاً من الله ورِضوانًا وينْصرونَ الله ورسولَه أُولئك هم الصّادِقُون . والّذِينَ تبوءُوا الدّار والإيمانَ من قَبلهم يُحبُّون منْ هَاجرَ إليهم ولا يَجِدُون في صدُورهم حاجةً مِمّا أُوتُوا ويُؤثِرُون علَى أَنفُسهم ولوْ كانَ بِهِم خصاصةٌ ومنْ يوقَ شُحَّ نفسِهِ فأولئِك هم المفْلِحُون » .

صلاة الخوف في ذات الرقاع :

قال ابن اسحاق : (٢)

وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم نخلاً (٣) يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان ولقي بها جمعاً عظيماً ، فتقارب الناس ولم يكن بينهم حرب ولكن خاف الناس بعضهم بعضا حتى صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف ، ثم انصرف .

---

١ ـ الحشر : الآيات ٧ ـ ٩

٢ ـ ابن هشام ج ٣ ص ٢١٤ ـ ٢١٥ وابن كثير ج ٣ ص ١٦٠ ـ ١٦٦

٣ ـ اسم مكان

وعن صلاة الخوف هذه يقول القرآن : (١)

« وإذا ضَرَبْتُم في الأرضِ فليسَ عليكم جناحٌ أن تقصرُوا من الصَّلاةِ إنْ خِفتُم أن يفتنَكُم الذينَ كَفَرُوا إنّ الكافرين كانُوا لكم عدوًّا مبيناً وإذا كنتَ فيهِمْ فأقمتَ لهم الصلاةَ فَلْتَقُمْ طائفةٌ منهم معَكَ وليأخُذوا أسلحتَهُمْ فإذَا سجدُوا فَلْيكُونُوا من ورائِكم ، ولتأتِ طائفةٌ أُخْرَى لم يُصَلُّوا فليصلُّوا معكَ وليأخذُوا حِذرَهُم وأسلحتَهُم وَدَّ الذين كفرُوا لو تَغْفلُونَ عن أسلحتِكُم وأمتعتكم فيَميلُونَ عليكم ميلةً واحدةً ولا جناحَ عليكم إنْ كان بكم أذًى مِنْ مَطَرٍ أو كنتم مرضَى أنْ تضعُوا أسلحتَكُمْ وخذُوا حِذْرَكم ، إن اللهَ أعدَّ للكافرينَ عذاباً مُهِينًا » .

غزوة الخندق (الأحزاب)

دور اليهود في التحريض :

جاء في السيرة (٢) :

ان نفراً من يهود منهم سلام بن أبي الحقيق وأخوه كنانة ، وحُيَيّ بن أخطب ، ونفر من بني النضير ونفر من بني وائل هم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قدموا على قريش بمكة . . فلما سألتهم قريش بالذي يعلمون : أديننا خير أم دين محمد . . قالوا : بل دينكم خير من دينه . .

---

١ ــ النساء : الآيتان ١٠١ ــ ١٠٢

٢ ــ ابن هشام ج ٣ ص ٢٢٥ ــ ٢٢٦ وابن كثير ج ٣ ص ١٧٨

وفعلوا مثل ذلك بغطفان . . فخرجت قريش وغطفان ــ يقصدون المدينة .

عن هذا يقول القرآن : (١)

« ألَمْ تَرَ إلى الذين أُوتُوا نَصِيباً من الكتابِ يُؤْمنون بِالْجِبتِ والطّاغُوتِ ويقولون للذينَ كفرُوا هؤُلاَءِ أهدَى مِنَ الذين آمنوا سبيلاً . أُولَئِكَ الذين لَعَنَهُمْ اللهُ ومَنْ يَلْعنِ اللهُ فَلَنْ تجدَ له نصيراً . أمْ لهم نصيبٌ من المُلْكِ فإذًا لاَ يُؤْتُونَ الناسَ نقيراً .أمْ يحسدُونَ الناسَ على ما آتاهم اللهُ من فضله ... » .

حفر الخندق :

قال ابن اسحاق : (٢)

فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة ، وعمل فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ترغيباً للمسلمين فعملوا معه ودأب ودأبوا .

وأبطأ عن ذلك رجال من المنافقين كانوا يوارون بالضعيف من العمل ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من الرسول ولا إذن منه صلى الله عليه وسلم .

---

١ ــ النساء : الآيات ٥١ ــ ٥٤

٢ ــ ابن هشام ج ٣ ص ٢٢٦ ــ ٢٢٧ وابن كثير ج ٣ ص ١٨٦

في هذا يقول القرآن : (١)

« إنّما المؤمنُونَ الذين آمنُوا باللهِ ورسولِهِ وإذا كانُوا معهُ على أمْرٍ جامعٍ لمْ يذهبُوا حتّى يستأذِنُوه إنّ الذين يستأذِنُونَكَ أولئك الذين يُؤْمِنُونَ باللهِ ورسولِهِ فإذَا استأذَنُوكَ لبعضِ شأنِهِمْ فأذَنْ لِمَنْ شئتَ منهُمْ واستغفرْ لهم الله إنّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ . لا تجعلُوا دعاءَ الرسولِ كَدُعَاءِ بعضِكم بعضًا قد يعلمِ اللهُ الذينَ يتسلّلُونَ منكم لِوَاذًا فَلْيحذَرِ الذينَ يخالِفُونَ عَنْ أمرِهِ أنْ تُصِيبَهم فتنةٌ أوْ يُصِيبَهُم عذابٌ أليمٌ » .

اشتداد الأمر على المسلمين :

قال ابن اسحاق : (٢) « ٣ : ٢٣٣ » :

وعظم عند ذلك البلاء على المسلمين واشتدّ الخوفُ وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتّى ظن المؤمنون كل ظن .

عن هذا يقول القرآن : (٣)

« إذْ جاءُوكم مِنْ فوقكم ومِنْ أسفلَ منكم وإذْ زاغتْ الأبصارُ وبَلَغَتِ القلوب الحَنَاجرَ وتظنون باللهِ الظُنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ المؤمنُونَ وَزُلْزِلُوا زلزالا شديدًا » .

---

١ ـ سورة النور : الآيتان ٦٢ ـ ٦٣
٢ ـ ابن هشام ج ٣ ص ٢٣٣ وابن كثير ج ٣ص ٢١٣
٣ ـ الاحزاب : الآيتان ١٠ ـ ١١

النفاق يعلن عن نفسه :

قال ابن إسحاق : (١)

ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن أن يذهب إلى الغائط . (وتنسب المقالة لغيره) .

عن هذا يقول القرآن : (٢)

« وإذْ يقولُ المنافِقُونَ والّذِينَ في قلُوبِهم مرضٌ ما وعدَنَا الله ورسولُه إلا غروراً » .

رغبة المنافقين في الفرار بانتحال الأعذار :

قال ابن اسحاق : وقال أوس بن قيظي أحد بني حارثة بن الحارث : يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو فأذن لنا أن نخرج فنرجع فإنها خارج المدينة — وذلك على ملأ من قومه .

عن هذا يقول القرآن : (٣)

« وإذْ قالتْ طائفةٌ منهم يَا أهْلَ يثْربَ لا مُقَامَ لكم فارْجِعُوا وَيَسْتَأذِنُ فريقٌ منهم النبيَّ يقولون إنّ بيوتَنَا عورةٌ وما هِيَ بعورةٍ إنْ يريدُونَ إلاّ فراراً . ولو دُخِلَتْ

---

١ ــ ابن هشام ج ٣ ص ٢٢٧

٢ ــ الاحزاب : الآية ١٢

٣ ــ الاحزاب : الآيات ١٢ ــ ١٧

عليهم مِنْ أقْطَارِهَا ثم سُئِلُوا الفتنةَ لأتوْهَا ومَا تَلبثُوا بِهَا إلا يسيرًا . ولقد كانُوا عاهدُوا اللهَ مِنْ قبلُ لاَ يُوَلُّون الأدبَارَ وكان عهدُ اللهِ مسئولاً . قُلْ لَنْ ينفعكُمْ الفرارُ إنْ فررتُمْ من الموتِ أوْ القتلِ وإذًا لاَ تُمَتَّعُونَ إلاّ قليلاً . قُلْ مَنْ ذَا الذي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إنْ أرادَ بكم سوءًا أوْ أرادَ بكم رحمةً وَلاَ يَجِدُونَ لهم مِنْ دونِ اللهِ وليًا ولا نَصِيرًا » .

دعاة الهزيمة والتخذيل عن القتال :

في السيرة حديث مفصل عما قام به عدو الله حُيَيّ بن أخطب في تخذيل بني قريظة وحملهم على نقض ما كانوا عاهدوا الرسول صلى الله عليه وسلم عليه . . وما أدى إليه ذلك من فتنة ، وما فتّ في عضد الناس وزاد المشقة عليهم ، حتى هَمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما اشتد البلاء وبرز النفاق أن يعقد صلحاً مع غطفان .

عن موقف هؤلاء المعوقين يقول القرآن : (١)

« قَدْ يَعْلَمُ اللهُ المُعَوِّقِينَ منكُمْ والْقائِلينَ لإخْوانِهِمْ هَلُمَّ إلينْا ولا يأتُونَ البأسَ إلاّ قليلاً . أشِحّةً عليكم فإذا جاءَ الخوفُ رأيتَهُم ينظرُونَ إليكَ تدورُ أعينُهم كالّذي يُغْشَى عليهِ مِنَ الموتِ فإذا ذهبَ الخوفُ سلقُوكُم بِألْسِنةٍ حدادٍ

١ ـ الاحزاب : الآيات ١٨ ـ ٢٠

أشحةً علَى الخيرِ أولئك لمْ يُؤمِنُوا فأحْبَطَ اللهُ أعمالَهُمْ وكان ذَلِكَ على اللهِ يسيرًا يَحْسَبُونَ الأحزابَ لم يذهَبُوا وإنْ يأتِ الأحزابُ يَوَدُّوا لَوْ أنّهُمْ بَادُونَ في الأعْرَابِ يَسْألُونَ عَنْ أنبائِكُم ولو كَانُوا فيكم مَا قاتلُوا إلاّ قليلاً » .

موقف المؤمنين في المحنة :

في السيرة :

أنه لما اشتد البلاء على الناس همّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعقد الصلح مع غطفان على أن يكون لهم ثلث ثمار المدينة . . ولما استشار سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة زعيمي الأنصار قالا له :

« يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً .. أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ،والله لا نعطيهم إلا السيف حتّى يحكم الله بيننا وبينهم .

عن هذا يقول القرآن : (١)

« ولما رأى المؤمنُون الأحزَابَ قالُوا هذَا ما وعدَنَا اللهُ ورسولُه وصدَقَ اللهُ ورسولُه وما زَادهُم إلاّ إيماناً وتسليماً » .

---

١ ــ الاحزاب : الآية ٢٢

نهاية الأحزاب وارتحالهم عن المدينة :

قال ابن إسحاق : (١)

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس — وكان من صنع الله لرسوله صلى الله عليه وسلم — أن أرسل أبو سفيان بن حرب ورؤوس غطفان إلى بني قريظة ، عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم :

إنا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخف والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه ، فارسلوا إليهم أن اليوم سبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً . . ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا .

ورفض القرشيون والغطفانيون أن يعطوا الرهن ، وخذل الله بينهم ، وبعث عليهم الريح تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم .. فارتحلوا . . وعاد المسلمون إلى المدينة .

عن هذا يقول القرآن : (٢)

« وردَّ اللهُ الذينَ كفرُوا بغيظِهِم لمْ ينالُوا خيرًا وكفَى اللهُ المؤمنينَ القتالَ وكانَ اللهُ قوياً عزيزًا » .

---

١ ـ ابن هشام ج ٣ ص ٢٤١

٢ ـ الاحزاب : الآية ٢٥

غزوة بني قريظة :

في السيرة : (١)

وأذّن مؤذن الرسول في الناس – بعد انصراف الأحزاب – من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلينَّ العصرَ إلا في بني قريظة .

وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين ليلة حتّى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب .

ثم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليهم أبا لُبابة يستشيرونه في موقفهم فبعثه إليهم وكانت له قصة – ليس هذا مقام تفصيلها – وأخيراً ارتضوا أن يحكم فيهم سعد بن معاذ فقال سعد :

فإني أحكم فيهم أن تُقتَلُ الرجال وتُقسم الأموالُ ، وتُسبَى الذراري والنساء .

عن هذا يقول القرآن : (٢)

« وأنزَلَ الذينَ ظاهرُوهُمْ من أهلِ الكتابِ من صَياصِيهم وقذَفَ في قلُوبهم الرُّعبَ فريقاً تقتلُونَ وتأسِرُونَ فريقاً . وأورثكُم أرضهمْ ودِيارهم وأموالَهم وأرضاً لم تطأوهَا وكانَ اللهُ على كلِّ شيء قديرًا » .

---

١ – ابن هشام ج ٣ ص ٢٤٤ – ٢٦٦

٢ – الاحزاب : ٢٦ – ٢٧

حديث الإفك :

في كتب السيرة النبوية (١) حديث طويل مفصل عن قصة الإفك هذه .

كيف بدأت أثناء غزوة بني المصطلق ؟ والظروف التي صحبتها ؟ والذين تولوا كبرها من المنافقين ؟ والذين خاضوا فيها من بعض المؤمنين ؟

كما أورده البخاري في كتاب المغازي بعنوانه : حديث الإفك.. وبتفصيل دقيق مما روته عائشة رضوان الله عليها . مما يطول نقله هنا ، ونؤثر لمن شاء أن يلتمسه في مظانه التي أشرنا إليها .. وغيرها.

أما ما جاء في القرآن فقد تضمنته آيات سورة النور على النحو التالي :

تبرئة عائشة وتسمية الحديث إفكاً وعتاب الذين لم يعتبروه كذلك :

« إنَّ الّذينَ جاءُوا بالإفْكِ عصبةٌ منكُمْ ... » (٢)

« لَوْلاَ إذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ المؤمنُونَ والمؤمناتُ بأنفسهِمْ خيرًا وقالُوا هذَا إفكٌ مُبِينٌ » . (٣)

رمي المحصنات بلا شهداء بهتان عظيم :

« لوْلاَ جاءُوا عليه بأرْبعَةِ شهداءَ فإذْ لم يأتُوا بالشهداء فأولئِكَ عنْدَ اللهِ هُمْ الكاذِبُونَ » . (٤)

---

١ ـ ابن هشام ج ٣ ص ٣٠٩ ـ ٣٢١ وابن‌كثير ج ٣ ص ٣٠٤ ـ ٣١٢
٢ ـ النور : الآية ١١
٣ ـ النور : الآية ١٢
٤ ـ النور : الآية ١٣

« ولوْلاَ فضلُ اللهِ عليكم ورحمتُهُ في الدنيا والآخرة لَمَسّكُمْ فيما أَفَضْتُمْ فيهِ عذابٌ عظيمٌ » . (١)

« إذْ تَلقونَهُ بألسنَتِكُم وتقولُون بأفوَاهِكُم مَا لَيْسَ لكُمْ بِه علمٌ وتَحْسَبُونَهُ هيِّناً وهو عندَ اللهِ عظيمٌ » .(٢)

« إنَّ الّذينَ يُحِبُّونَ أنْ تَشيعَ الفاحشةُ في الّذينَ آمنوا لهم عذابٌ أليمٌ في الدُّنْيا والآخِرَةِ واللهُ يعلمُ وأنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ » . (٣)

« إنَّ الذينَ يَرْمُونَ المحصناتِ الغافلاتِ المؤمناتِ لُعِنُوا في الدُّنْيا والآخرةِ ولهم عذابٌ عظيمٌ » . (٤)

« يَومَ تَشْهَدُ عليهم ألْسِنَتُهُمْ وأَيْدِيهِمْ وأرْجُلهُمْ بِمَا كانُوا يَعْمَلُونَ » . (٥)

« يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمْ اللهُ دِينَهُمْ الْحَقَّ ويَعْلَمُونَ أنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِين » . (٦)

التحذير من الوقوع في الإفك :

« يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم » . (٧)

---

١ ــ النور : الآية ١٤
٢ ــ النور : الآية ١٥
٣ ــ النور : الآية ١٩
٤ ــ النور : الآية ٢٣
٥ ــ النور : الآية ٢٤
٦ ــ النور : الآية ٢٥
٧ ــ النور : الآية ١٧ ــ ١٨

« يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم » . (١)

رأس المنافقين الذي تولى كبره :

« إنَّ الذينَ جاءُوا بالإفكِ عُصْبَةٌ منكم لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لكم بَلْ هو خيرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِيءٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإثْمِ والذي تَوَلَّى كِبْرَهُ منهم لَهُ عذابٌ عظيمٌ » . (٢)

مطالبة أبي بكر بالعفو عن مسطح :

« وَلاَ يَأْتَلِ أولُوا الفَضْلِ منكم والسَّعَةِ أنْ يُؤْتُوا أولي القُرْبَى والمساكينَ والمهاجِرِينَ في سبيلِ اللهِ ولْيَعْفُوا ولْيَصْفَحُوا ألاَ تُحِبُّونَ أنْ يغفرَ اللهُ لكُمْ واللهُ غفورٌ رحيمٌ » . (٣)

صلح الحديبية وبيعة الرضوان :

في كتب السيرة عن صلح الحديبية وبيعة الرضوان حديث طويل مفصل يبلغ عشرين صفحة في آخر الجزء الثالث من سيرة ابن هشام . . فليرجع لتفصيله من أراد .

---

١ ـ النور : الآية ٢١
٢ ـ النور : الآية ١١
٣ ـ النور : الآية ٢٢

أما حديثهما في القرآن فهذا تفصيله .

رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رسولَهُ الرُّؤْيا بالْحقِّ لَتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إنْ شَاءَ اللهُ آمنين مُحلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تعلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلكَ فتحاً قريباً » . (١)

المخلفون من الأعراب :

قال ابن اسحاق : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه ، وهو يخشى من قريش الذي صنعوا أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدوه عن البيت ، فأبطأ عليه كثير من الأعراب .

عن تخلف الأعراب جاء في القرآن : (٢)

« سيقولُ لَكَ المخلّفُونَ من الأعْرَابِ شَغَلَتْنا أموالُنا وأهْلُونا فاستغْفر لنَا يقولُونَ بألْسِنَتِهِمْ ما ليسَ في قلوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لكم مِنَ اللهِ شيئاً إنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أوْ أرادَ بكم نفعاً بَلْ كانَ اللهُ بِمَا تعملُونَ خَبيراً . بَلْ ظَنَنْتُمْ أنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرسولُ والمؤمنون إلى أهْلِيهم أبداً وَزُيِّنَ ذلكَ في قلوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وكُنْتُمْ قوماً بُوراً » .

---

١ ـ الفتح : الآية ٢٧

٢ ـ الفتح : الآية ١١ ـ ١٢

وقوله تعالى : (١)

« سيقولُ المخلفُونَ إذَا انْطَلَقْتُم إلَى مَغَانِمَ لتأخذُوها ذَرُونا نَتّبِعْكُمْ يريدُونَ أنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ الله ، قُلْ لَنْ تتبعُونَا كَذَلِكُم قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيقُولُونَ بَلْ تَحْسدُونَنَا بَلْ كَانُوا لاَ يفقهُونَ إلاَّ قليلاً . قُلْ لِلْمُخَلّفِينَ مِنَ الأعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إلَى قوم أُولِي بأسٍ شديدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أوْ يُسْلِمُونَ فإن تُطيعُوا يُؤْتِكُمْ اللهُ أجرًا حسناً وإنْ تَتَوَلَّوا كَمَا تَوَلّيْتُمْ مِنْ قبلُ يعذِّبْكُم عذاباً أليماً » .

بيعة الرضوان :

قال ابن اسحاق : (٢)

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين بلغه أن عثمان قد قتل لا نبرح حتى نناجز القوم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة .

قال ابن هشام : عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بايع لعثمان فضرب بإحدى يديه على الأخرى .

عن هذه البيعة يقول القرآن : (٣)

« لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إذْ يُبَايِعُونَكَ تحتَ

---

١ ـ الفتح : الآية ١٥ ـ ١٦

٢ ـ ابن كثير ج ٣ ص ٣١٩ ـ ٣٢٩ وابن هشام ج ٣ ص ٣٣٠

٣ ـ الفتح : الآيات ١٨ ـ ٢١

الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً . ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزًا حكيماً . وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً . وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً » .

إصرار قريش على منع الرسول من دخول مكة :

في السيرة : (١)

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما وصل عسفان في طريقه إلى مكة لقيه بشر بن سفيان الكعبي فحدثه عما أعدت له قريش لتمنعه من دخول مكة . . فقال صلى الله عليه وسلم : يا ويح قريش ، قد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب . . ثم قال صلى الله عليه وسلم : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟

عن هذا يقول القرآن : (٢)

« هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم

١ ــ ابن هشام ج ٣ ص ٣٢١ ــ ٣٢٥

٢ ــ الفتح : الآيتان ٢٥ ــ ٢٦

منهم مَعَرَّةٌ بغير عِلْمٍ ليدخلَ اللهُ في رحمتِهِ مَنْ يشاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لعذَّبْنا الذينَ كفرُوا منهُمْ عذاباً أليماً . إذْ جَعَلَ الذين كفرُوا في قلوبِهِمْ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجاهليةِ فأنْزَلَ اللهُ سكينَتَهُ على رسولِهِ وعلى المؤمنينَ وألْزَمَهُمْ كلمةَ التّقْوَى وكانُوا أحَقَّ بِهَا وأَهْلَهَا وكانَ اللهُ بكلِّ شيءٍ عليماً ».

الهدنة :

قال ابن اسحاق : (١)

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو أخا بني عامر بن لؤي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له: ائت محمداً فصالحه ، فلما انتهى سهيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أطال الكلام وتراجعا ، ثم جرى بينهما الصلح .

إلى هذا يشير القرآن في قوله تعالى : (٢)

« وَهُوَ الّذِي كَفَّ أيْدِيَهُمْ عنكم وأيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكّةَ مِنْ بَعْدِ أنْ أَظْفَرَكُمْ عليهم وكانَ اللهُ بما تعملُونَ بصيراً » .

الفتح المبين :

يقول الزهري : (٣)

فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه ، ووضعت

١ ـ ابن هشام ج ٣ ص ٣٢١

٢ ـ الفتح : الآية ٢٤

٣ ـ ابن هشام ج ٣ ص ٣٣٦ .

الحرب وآمن الناس بعضهم بعضا ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث و المنازعة ، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر .

إلى هذا يشير القرآن في قوله : (١)

«إنّا فتحْنا لكَ فتحاً مُبيناً. ليغفرَ لكَ اللهُ ما تقدّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تأخّرَ وَيُتِمَّ نعمتَهُ عليكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً . وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عزيزًا . هو الّذي أنْزَلَ السكينةَ في قلوبِ المؤمنينَ لِيَزْدَادُوا إيمَاناً مَعَ إيمَانِهِم ولله جنودُ السمواتِ والأرضِ وكَانَ اللهُ عليماً حكيماً » .

إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات :

قال ابن اسحاق : (٢)

وهاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط في تلك المدة ، فخرج أخواها عمارة والوليد حتى قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألانه أن يردها عليهما بالعهد الذي بينه وبين قريش في الحديبية فلم يفعل .

عن هذا جاء في القرآن : (٣)

« يا أيّها الذينَ آمنُوا إذَا جَاءَكُمْ المؤمناتُ مُهاجِرَاتٍ

---

١ ـ الفتح : ١ ـ ٤

٢ ـ ابن هشام ج ٣ ص ٣٤٠

٣ ـ الممتحنة : الآية ١٠

فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ فإنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مؤمنات فَلاَ ترجِعُوهُنَّ إلى الكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُحِلُّونَ لَهُنَّ وآتُوهُمْ مَا أنْفَقُوا وَلاَ جُنَاحَ عليكُمْ أنْ تَنْكِحُوهُنَّ إذَا آتيتُمُوهُنَّ أجُورَهُنَّ وَلاَ تمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكَوَافِرِ واسْألُوا مَا أنْفَقْتُمْ وَلْيَسْألُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يحكُم بَيْنَكُمْ واللهُ عليمٌ حكيمٌ » .

العائدون من المهجر :

قال ابن اسحاق : (١)

وكان من أقام بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري ، فحملهم في سفينتين فقدم بهم عليه وهو بخيبر بعد الحديبية .

عن هذا جاء في القرآن : (٢)

« الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الكتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أولئكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ومَنْ يكفرْ بِهِ فأولئكَ هُمْ الخَاسِرُونَ »

قال ابن عباس فيما رواه عطاء والكلبي : نزلت في أصحاب السفينة الذين أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة وكانوا أربعين رجلا .

١ ــ ابن هشام ج ٤ ص ٣
٢ ــ البقرة : الآية ١٢١

ويروي النيسابوري في أسباب النزول : (١)

أن قوله تعالى : (٢)

« إنَّ أوْلَى الناسِ بإبراهيمَ للّذينَ اتّبَعُوهُ وهـذَا النبيُّ والذينَ آمنُوا واللهُ وَلِيُّ المؤمِنينَ » .

نزلت فيما دار بين المهاجرين إلى الحبشة من أصحاب الرسول صلوات الله عليه وبين طالبيهم من كفار مكة ليثأروا بهم ممـــا أصيبوا به في بدر ، وكان الحوار في حضرة النجاشي ملك الحبشة آنذاك . . الذي سمع من مهاجري المسلمين ما أثلج صدره عن الإيمان بعيسى ومريم وإبراهيم عليهم السلام .

حدث قبل فتح مكة :

في السيرة : (٣)

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أجمع السير إلى مكة ، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم فيه بما أجمع الرسول عليه وأعطاه امرأة وجعل لها جعلا إن أوصلته لقريش .

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء . . فلما سأل حاطبا عما فعل قال : « أما والله أني لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدلت ، ولكني كنت امرأ ليس لي في القوم أصل ولا عشيرة وكان لي بين أظهرهم أهل وولد فصانعتهم عليه .

١ ـ أسباب النزول ص ٦٨
٢ ـ آل عمران : الآية ٦٨
٣ ـ ابن هشام ج ٤ ص ٤٠ وما بعدها وابن كثير ج ٣ ص ٥٣٦

عن هذا يقول القرآن : (١)

« يَا أيُّهَا الذينَ آمنُوا لاَ تَتّخِذُوا عَدُوِّي وعدوّكُمْ أولياءَ تُلْقُونَ إليهِمْ بالمودّةِ وَقَدْ كفرُوا بِمَا جاءَكُمْ مِنَ الحَقِّ يخرجون الرسولَ وإيّاكُمْ أنْ تؤمنوا باللهِ رَبِّكُمْ إنْ كنتُمْ خرجتُمْ جِهَاداً في سَبيلي وابتغاءَ مرضاتِي تُسِرُّونَ إلَيْهِمْ بالمودّةِ وأنَا أعلمُ بما أخفيْتُمْ وَمَا أعلنْتُمْ وَمَنْ يفعلْهُ منكم فَقَدْ ضلَّ سواءَ السبيلِ » .

إلى قوله تعالى :

« قد كانتْ لكم أسوةٌ حسنةٌ في إبراهيمَ والّذينَ مَعَهُ إذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إنّا بُرَءَاؤُا منكم وَمِمّا تعبدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كفرنَا بِكم وَبَدَا بيننا وبَيْنَكُمْ العداوةُ والبغضاءُ أبَداً حتى تؤمنُوا باللهِ وَحْدَهُ ... » .

يوم حنين :

قال ابن اسحاق : (٢)

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ألفان من أهل مكة وعشرة آلاف من أصحابه فكانوا اثنى عشر ألفاً . ثم مضوا يريدون لقاء هوازن .

وقال : (٣)

وحدثني بعض أهل مكة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

١ ـ الممتحنة ١ ـ ٤

٢ ـ ابن هشام ج ٤ ص ٨٠ وابن كثير ج ٣ص ٦١٠

٣ ـ ابن هشام ج ٤ ص ٨٧

حين خرج إلى حنين قال أحد أصحابه لما رأى كثرة من معه من جنود الله : لن نغلب اليوم من قلة .

قال ابن اسحاق :

وزعم بعض الناس أن الذي قالها رجل من بكر .

عن غزوة حنين وما أحاط بها من هزيمة وثبات . . ثم نصر . .

تقول الآيات الكريمة : (١)

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ في مواطنَ كثيرةٍ ويومَ حنينٍ إذْ أعجبَتْكُمْ كثرتُكُمْ فلمْ تُغْنِ عنكم شيئاً وضاقَتْ عليكم الأرضُ بِمَا رَحُبَتْ ثم وليتُمْ مُدْبِرِينَ . ثم أنزلَ اللهُ سكينتَهُ على رسولِهِ وعلى المؤمنينَ وأنزلَ جنودًا لم تَرَوْهَا وعذَّبَ الذينَ كفرُوا وذلِكَ جزاءُ الكافرِينَ . ثم يتوبُ اللهُ من بعدِ ذلك عَلَى مَنْ يشاءُ واللهُ غفورٌ رحيمٌ » .

ائذن لي ولا تفتني :

في السيرة : (٢)

لما تهيأ رسول الله صلى الله عليه وسلم لغزوة تبوك قال – وهو في جهازه – للجد بن قيس . . يا جد . . هل لك العام في جلاد بني الأصفر ؟ فقال يا رسول الله . . أو تأذن لي ولا تفتني ؟ فو الله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجباً بالنساء مني ؟

---

١ – التوبة : ٢٥ – ٢٧

٢ – ابن هشام ج ٤ ص ١٥٩

وأني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أذنت لك .

عن هذا يتحدث القرآن في قوله تعالى : (١)

« وَمنهُم مَنْ يقولُ ائْذَنْ لي وَلاَ تَفْتِنِّي ألاَ في الفتنةِ سقطُوا وإنَّ جهنّمَ لَمحيطةٌ بالكافرِينَ » .

لا تنفروا في الحر :

في السيرة : (٢)

وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض لا تنفروا في الحر ، زهادة في الجهاد وشكا في الحق وإرجافا برسول الله صلى الله عليه وسلم .

عن هذا يقول القرآن : (٣)

«... وقالُوا: لاَ تَنْفِرُوا في الحرِّ قُلْ نارُ جهنّمَ أشَدُّ حَرّاً لو كانُوا يفقَهُونَ . فلْيَضْحَكُوا قليلاً ولْيَبْكُوا كثيراً جزاءً بمَا كانُوا يكسِبُونَ . فإنْ رَجَعَكَ اللهُ إلى طائفةٍ منهم فاسْتَأذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فقلْ لَنْ تخرجُوا معِيَ أبداً وَلَنْ تقاتِلُوا معِيَ عَدُوّاً إنكمْ رَضِيتُمْ بالقعودِ أوّلَ مرةٍ فاقْعُدُوا مع الخالِفِينَ . وَلاَ تُصَلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً ولا تقمْ

---

١ ـ التوبة : الآية ٤٩

٢ ـ ابن هشام ج ٤ ص ١٦٠

٣ ـ التوبة : ٨١ ـ ٨٤

على قبْرِهِ إنهم كفرُوا باللهِ ورسولِهِ وماتُوا وهم فَاسِقُونَ » .

البكاؤون :

قال ابن اسحاق : (١)

ثم إن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم البكاؤون وهم سبعة نفر من الأنصار فاستحملوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا أهل حاجة فقال : لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا .

عن هؤلاء يقول القرآن : (٢)

« ليس عَلَى الضعفاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى ولا على الّذينَ لاَ يَجِدُونَ مَا ينفِقُونَ حَرَجٌ إذا نَصَحُوا للهِ ورسولِهِ مَا عَلَى المحسنينَ مِنْ سبيلٍ واللهُ غفورٌ رحيمٌ . وَلاَ عَلَى الذين إذا ما أتوكَ لِتَحْمِلَهُمْ قلت لا أجدما أحملكمعليه تَوَلّوْا وأعينُهُمْ تفيضُ من الدمعِ حَزَناً ألاّ يَجِدُوا مَا ينفِقُونَ» .

غزوة تبوك :

اثاقلتم إلى الأرض :

في السيرة : (٣)

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو

---

١ ـ ابن هشام ج ٤ ص ١٦١ وما بعدها
٢ ـ التوبة : الآيات ٩١ ـ ٩٣
٣ ـ ابن هشام ٤ ص ١٥٩

الروم وذلك في زمان من عسرة الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد ، وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحال وفي الزمان الذي هم عليه .

عن هذا تقول الآيات الكريمة : (١)

« يَا أيُّهَا الذينَ آمنُوا مَا لَكُمْ إذَا قِيلَ لكُمْ انفِرُوا في سبيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إلى الأرضِ أرَضِيتُمْ بالحياةِ الدّنيا من الآخرة فما متاعُ الحياةِ الدنيَا في الآخرةِ إلاّ قليلٌ . إلاّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عذاباً أليماً ويستبدلْ قوماً غَيْرَكُمْ ولاَ تَضُرُّوهُ شيئاً واللهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ » .

إلى قوله : « انْفِرُوا خِفَافاً وثِقَالاً وجاهدُوا بأموالِكُمْ وأنفسِكُمْ في سبيلِ اللهِ ذلكم خيرٌ لَكُمْ إنْ كنتُمْ تعلَمُونَ » .

المعذرون من الأعراب :

قال ابن اسحاق : (٢)

وجاءه المعذرون من الأعراب فاعتذروا إليه فلم يعذرهم الله تعالى ، وقد ذكر لي أنهم نفر من بني غفار .

عن هذا تقول الآيات الكريمة : (٣)

« وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ من الأعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لهم وقعدَ

١ ـ التوبة : الآيات ٣٨ ـ ٤١
٢ ـ ابن هشام ج ٤ ص ١٦٢
٣ ـ التوبة : الآية ٩٠

الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم » .

لو خرجوا فيكم :

قال ابن اسحاق : (١)

وضرب عبد الله بن أبي عسكره على حدة أسفل منهم نحو ذياب (جبل بالمدينة) وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين ، فلما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم تخلف عنه ابن أبي فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب .

عن هذا تقول الآيات الكريمة : (٢)

« لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لا تبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون » .

وقوله : (٣)

« لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون » .

---

١ ـ سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٦٢ وما بعدها

٢ ـ التوبة : الآية ٤٢

٣ ـ التوبة : الآية ٤٧ ـ ٤٨

الثلاثة الذين خلفوا :

قال ابن اسحاق : (١)

وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وكان قد تخلف عنه رهط من المنافقين ، وتخلف أولئك الرهط الثلاثة من المسلمين من غير شك ولا نفاق : كعب بن مالك ، مرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : لا تكلمن أحداً من هؤلاء الثلاثة . .

وحديثهم في السيرة طويل . .

عن هؤلاء الثلاثة تقول الآيات الكريمة : (٢)

« لقد تَابَ اللهُ على النّبيِّ والمهاجرِينَ والأنصارِ الّذِينَ اتّبَعُوهُ في ساعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فريق منهم ثم تَابَ عليهم إنّه بِهِمْ رءوفٌ رحيمٌ . وعلى الثلاثةالّذينَ خُلّفُوا حتى إذا ضاقَتْ عليهم الأرضُ بِمَا رَحُبَتْ وضَاقَتْ عليهم أنفُسهُمْ وَظَنُّوا أنْ لاَ ملجأ من اللهِ إلاّ إليهِ ثم تَابَ عليهمْ لِيَتُوبُوا إنّ اللهَ هو التوّابُ الرحيمُ » .

اعتذار المخلفين من المنافقين :

قال ابن اسحاق : (٣)

وأتاه من تخلف من المنافقين فجعلوا يحلفون له ويعتذرون

---

١ ــ ابن هشام ج ٤ ص ١٧٥
٢ ــ التوبة : الآيتان ١١٧ ــ ١١٨
٣ ــ ابن هشام ج ٤ ص ١٧٦

فصفح عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعذرهم الله ولارسوله .

عن هذا تقول الآيات الكريمة : (١)

« يَعْتَذِرُونَ إليكُمْ إذَا رجعتُمْ إليْهم قُلْ لاَ تعتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لكم قَدْ نبّأنَا اللهُ من أخبَارِكُمْ وسيرى اللهُ عَمَلَكُمْ ورسولُهُ ثم تُرَدُّونَ إلَى عَالِم الْغَيْبِ والشّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بما كنتُمْ تعملُونَ . سيحلِفُونَ باللهِ لكم إذَا انْقَلَبْتُمْ إليْهِمْ لِتُعْرِضُوا عنهم فَأعْرِضُوا عنهم إنهمْ رجسٌ ومأوَاهُمْ جهنمُ جزاءً بما كانُوا يكسِبُونَ .يحْلفُونَ لكم لِتَرْضَوْا عنهم فإنْ ترضَوْا عنهم فإنَّ اللهَ لا يرضَى عن القومِ الفاسِقينَ » .

ما كان لَهم أن يتخلفوا :

« مَا كَانَ لأهْلِ المدينةِ وَمَنْ حولَهُمْ من الأعْرَابِ أنْ يتخلّفُوا عن رسولِ اللهِ وَلاَ يرغبُوا بأنْفُسِهِمْ عن نفْسِهِ ذلك بأنهمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظمأ وَلاَ نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ في سبيلِ اللهِ ولا يطأونَ مَوْطِئاً يغيظُ الكفّارَ ولا يَنَالُونَ من عدوٍّ نَيْلاً إلاّ كُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ إنّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أجْرَ المحسنِينَ . ولا يُنْفِقُونَ نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ولا يقطعونَ وادياً الاّ كُتِبَ لهم ليجزِيهُمْ اللهُ أحْسَنَ ما كانُوا يعملُونَ » . (٢)

---

١ ـ التوبة : الآيات ٩٤ ـ ٩٦

٢ ـ التوبة : الآيتان ١٢٠ ـ ١٢١

اليوم أكملت لكم دينكم :

قال ابن أسحاق : (١)

عن ابن أبي مليكة :

« لما كان يوم الإثنين : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عاصباً رأسه إلى الصبح وأبو بكر يصلي بالناس . . قال : فلما فرغ من الصلاة أقبل على الناس فكلمهم رافعاً صوته حتّى خرج صوته من باب المسجد يقول : أيها الناس ، سعرت النار ، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم واني والله ما تمسكون عليّ بشيء ، إني لم أحل إلا ما أحل القرآن ، ولم أحرم إلا ما حرم القرآن .

وقالت عائشة : رجع إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك اليوم حين دخل من المسجد فاضطجع في حجري . . قالت ووجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل في حجري فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة .

قالت : فقلت : خيرت فاخترت والذي بعثك بالحق . . قالت : وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عن هذه النهاية وما صحبها وما أعقبها يقول القرآن : (٢)

---

١ ـ ابن هشام ج ٤ ص ٦٥٣ ط الحلبى
٢ ـ المائدة / ٣

« . . . . اليومَ أكْمَلْتُ لكم دِينَكُمْ وأتْمَمْتُ عليكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لكم الإسلاَمَ ديناً . . . . » .

ويقول : (١)

« وَمَا محمدٌ إلاّ رسولٌ قَدْ خَلَتْ من قبلِهِ الرسلُ أفإنْ مَاتَ أوْ قُتِلَ انقلَبْتُمْ على أعقابِكُمْ وَمَنْ ينقلبْ على عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شيئاً وسيجزِي اللهُ الشاكِرِينَ » .

(صدق الله العظيم)

---

١ ـ آل عمران : الآية ١٤٤



فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة



دار الأصفهاني للطباعة بجدة

الموضــــوع	الصفحة